Looloo
www.helmelarab.net

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بها سوى أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

جاسوس القلم

(قصة واقعية)

فجأة ، اندلعت الثورة الروسية ..

وكلمة فجأة هنا ليست وسيلة لجذب الانتباه ، وإنما كانت صاعقة عنيفة ، هوت على رءوس الجميع ، فى الوقت الذى تخبَّط فيه العالم كله ، فى غمار الحرب العالمية الأولى ، واشتبك فيه الحلفاء : (إنجلترا) ، و(فرنسا) ، و(روسيا) ، و(بلجيكا) ، و(صربيا) ، و(الجبل الأسود) ، و(اليابان) ، فى نضال وقتال عنيفين شرسين ، ضد قوات الحلف الثلاثى : (ألمانيا) ،

و(النمسا) ، و(المجر) ، وإلى جواره الإمبراطورية العثمانية ..

ولم يكن مبعث توتر الجميع هو ذلك الانقلاب العنيف ، فى النظام الاجتماعى الروسى ، أو تلك الصراعات القوية ، بين اتجاهاته المختلفة ، أو حتى ما أصاب القيصر وأسرته ..

فكل هذا لم يكن يعنى أحدًا ، فى ذلك الحين ، خاصة وأن البلاشفة لم يكونوا قد تولَّوا السلطة فعليًّا ، ولم تكن الشيوعية قد أبرزت أنيابها بعد ..

ولكن الخطر الحقيقى كان يكمن فى تلك الدعوة ، التى تردَّدت بشدة فى الشارع الروسى ، كنتيجة مباشرة للثورة ..

دعوة (السلام والخبز) ..

فالروس ، الذين قاموا بالثورة ، وأيَّدوها ، وعانوا طويلاً من شظف العيش ، وفى نقص الغذاء والضروريات ، كانوا يكرهون الحرب ، التى تستنفد المزيد من الرجال ، والدماء ، والطعام ، والموارد ،

وكانوا ينادون بعقد صلح مُنفرد مع (ألمانيا) ، حت يعود السلام ، ويتوافر الخبز ..

وبالنسبة لباقى الحلفاء كانت هذه مصيبة ..

بل كارثة ..

فعقد صلح مُنفرد ، بين (روسيا) و(ألمانيا) ، كان يعنى أن تسحب الأخيرة أكثر من مليون جندى ، من الجبهة الروسية ، وتلقى بهم فى (أوروبا) ، فى وقت بلغ الموقف فيه أشدّ أوقاته حرجًا ..

وبسرعة وتوتر بالغين ، راحت المخابرات البريطانية تدرس الموقف ، الذى بدا لها دقيقًا ومُظلمًا للغاية ، فالقوات البريطانية والفرنسية مستنزفة إلى أقصى حد ، والأمريكيون لن يمكنهم قط عبور المحيط ، والوصول فى الوقت المناسب ، وهذا يعنى أن القوات الألمانية ، التى ستتحوَّل من الشرق إلى الغرب ، عند إيقاف القتال فى الجبهة الروسية ، ستكفى لتحطيم ما تبقَّى من قدرات الحلفاء ، ورفع علم (ألمانيا) على نصف (أوروبا) على الأقل ..

وعلى الرغم من أن رئيس وزراء الحكومة الروسية الجديدة، ووزير الحربية السابق (ألكسندر كيرينسكى)، قد أعلن اعتزام حكومته المُضى فى الحرب ضد (ألمانيا)، على نحو واضح وصريح، إلا أن حكومته كانت تواجه ضغوطًا عنيفة من البلاشفة، ومن دعوتهم الخاصة بإحلال (السلام والخبز) محل الحرب والقتال، والتى لقيت صدى شعبيًا هائلاً، مما يوحى بأن قضية مواصلة الحرب هى قضية خاسرة، إن عاجلاً أو آجلاً ..

أضف إلى هذا أن (ألمانيا) لم تقف مكتوفة اليدين ..

لقد أطلقت أبواق دعايتها بكل قوتها، والألمان موهوبون فى هذا المضمار، وراحت تُعمِّق الفكرة، فى وجدان الشعب والجيش، حتى إن بعض الجنود، الذين يرفضون فكرة الحرب منذ البداية، بدءوا بالفعل فى التخلى عن وحداتهم، والعودة إلى

منازلهم، تحت شعار أن الشعب الروسى لا مصلحة له فى حرب أوروبية، تستنزف موارده، وتقضى على أحلامه وطموحاته فى مهدها ..

وسُرعان ما امتدَّ التمرُّد إلى فرق عسكرية بأكملها، وصار الموقف كله ينذر بانهيار الجبهة الشرقية كلها من الداخل ..

وكان لابد من اتِّخاذ خطوة حاسمة، لدراسة الموقف عن قُرب، وتحديد ما ينبغى عمله، لمنع الكارثة الوشيكة ..

وفى القسم (إم ١١ س)، فى المخابرات البريطانية، والذى سُمى فيما بعد بقسم (إم آى - ٦)، راح (ويليام وايزمان)، مدير المشتروات البريطانية الخارجية، من الناحية الظاهرية، ورئيس إدارة الاستخبارات البريطانية، من الناحية الفعلية، يدرس الأمر بمنتهى الدقة والاهتمام، كعادة البريطانيين، وراح يُراجع عشرات الملفات، ويُجرى عشرات الاتصالات مع

المؤسسة الأمريكية ، وبخاصة البيت الأبيض ، عن طريق صديقه (إدوارد هاوس) ، مستشار الرئيس الأمريكى (وودرو ويلسون) ..

ثم خرج باقتراح خطير للغاية ..

لابد من إرسال جاسوس خاص جدًا إلى (بيتروجراد) (سان بطرسبرج) سابقًا ، لدراسة الموقف ، وتحديد ما ينبغى فعله ..

ومن وجهة نظر (وايزمان) ، كان لابد أن يتميَّز ذلك الجاسوس بنظرة ثاقبة ، وقدرة على استيعاب الأمور ، وفهم الأحداث ، وتحليلها ، وتقييم الموقف على نحو شامل دقيق ، وأن يتمتع بشخصية خاصة ، وغطاء قوى ، يُبعد عنه الشبهات تمامًا ..

ومن هذا المنطلق ، وقع اختياره على آخر شخص يمكن تصوُّره ..

على (سومرست موم) ..

وفى ذلك الحين ، كان (موم) كاتبًا شهيرًا محبوبًا ، تُترجم كتاباته إلى عدة لغات أوروبية ، ويُقيم بصفة دائمة فى (سويسرا) ، وله اتصالات قوية مع عشرات المؤسسات والجمعيات هناك ..

والواقع أن اختيار (موم) للمهمة لم يكن مجرَّد فكرة مجنونة ، كما قد يبدو للوهلة الأولى ..

فمنذ عام ١٩١٥ م ، انتبهت المخابرات البريطانية إلى شهرة (موم) واتصالاته ، وأدركت أنه من الضرورى أن يقوم شخص ، بتقديم خدمة لبلاده ، من موقعه هذا ..

وفى نهاية العام نفسه ، التقى أحد رجال المخابرات البريطانية بالكاتب الشهير ، وعرض عليه الأمر ..

ولدهشته ، وعكس توقعات الجميع ، رحب (موم) بالفكرة بشدة ، وأبدى استعداده التام للتعاون ، وللقيام بكل ما تكلفه إياه (بريطانيا) ، بمراقبة العملاء الألمان وجواسيسهم هناك ..

وفى عام ١٩١٦ م ، سافر (ويليام وايزمان) إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، بحجة عمله كرئيس للمشتريات ، ولكن مهمته الحقيقية كانت إدارة عمليات المخابرات هناك ، وشن حملة دعائية ضخمة ، والقيام بنشاطات مكافحة الجاسوسية ، حيث لم يكن جهاز المخابرات الأمريكية قد تكوّن بعد ..

ومن موقعه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، استطاع (وايزمان) أن يرتبط بصداقات قوية مع عدد من رجال ومستشارى الرئيس الأمريكى ، بحيث أصبحت المخابرات البريطانية هى التى تدير ـ فعليًّا ـ سياسة الرئيس (ويلسون) ..

ومن موقعه أيضًا درس الموقف الروسى ..

واختار (موم) ..

وعلى الرغم منَ إدراكه لمدى عنف وصعوبة وخطورة الأمر ، قبل (موم) المهمة ، وأعدَّ حقيبة ملابسه الضخمة ، ـ كالمعتاد ـ وشدّ الرحال إلى (بيتروجراد) ..

ومنذ اللحظة الأولى لوصوله ، أدرك (موم) أن المكان يختلف تمام الاختلاف عن مناخ (سويسرا) ، الذى اعتاده وعاش فيه طويلاً ..

بل لقد كان النقيض له تمامًا ..

فى كل شىء ..

ففى تلك الفترة ، كانت (بيتروجراد) أشبه بمستودع ضخم للقمامة ، يزخر بآلاف المجانين السياسيين ، ومثلهم من الغاضبين والثائرين ..

وكان (موم) يتناقض تمامًا مع كل هذا ، بزيه الأنيق ، المصنوع من الصوف ، فى جو أغسطس ١٩١٧ م ، وحذائه اللامع ، وعصاته ذات الرأس المصنوع من العاج ..

وكان الطبيعى أن يجذب انتباه الجميع ..

وشكوكهم ..

خاصة وأن تبريره الوحيد ، الذى قدَّمه للجميع ، عن

سبب تركه لهدوء (سويسرا) وإقحام نفسه فى جحيم (بيتروجراد)، فى ظل هذه الظروف، هو أنه - ككاتب - يحتاج إلى التواجد فى هذا المناخ، لتتضج داخله فكرة روايته الجديدة ..

وبالنسبة لشعب جاف خشن، يخوض ويلات عنيفة، مثل الشعب الروسى، كان هذا التبرير يبدو سخيفًا إلى حد كبير ..

وكان من الطبيعى، والحال هكذا، أن تُحيط الشكوك بالكاتب بشدة ..

ولكن (موم) كان أبعد ما يكون عن الشكل التقليدى، أو المتصوَّر، للجاسوس، فى تلك الآونة، فبالإضافة إلى مظهره المُلْفت للانتباه، والمثير للدهشة والاستفزاز، على عكس ما يميل إليه الجواسيس فى المعتاد، كان (موم) ضعيف البنية، خافت الصوت، كثير السعال، بسبب إصابته بسل رئوى قديم ..

ثم إنه كان، وهذا هو الأكثر خطورة، شاذًا على

نحوٍ علنى، لا ولم يُحاول قط إخفاءه، وهو يتطلّع إلى جنود البحرية الثوريين، فى شغف مفضوح ..

وبناءً على هذا، لم يتم اعتقال (موم) ..

بل وسرعان ما تناسى الجميع أمره، وتجاهلوا وجوده، وكأنهم يردون إليه الصفعة الاستفزازية ذاتها ..

وكان هذا أفضل ما يتمناه الكاتب، الذى راح يدرس الأمر، ويجمع المعلومات، ويسعى لتحليلها وتفنيدها، ثم يُرسل كل ما لديه إلى (وايزمان) ..

وأوّل ما أدركه (موم)، هو أنه قد وصل متأخرًا للغاية ..

فالدعاية الألمانية قد نجحت فى غرس نفسها، فى أعمق أعماق المجتمع الروسى، بحيث صار الجميع ساخطين على الحرب، رافضين للاستمرار فيها، مُطالبين بعقد صلح منفرد مع الألمان، لتوفير الطعام والمؤن ..

وفى الوقت ذاته ، كانت (ألمانيا) تعد لإعادة (لينين) وباقى زعماء البلاشفة إلى (موسكو) ، فى عملية عُرفت باسم (القطار الحديدى) ..

وكانت حكومة (كيرينسكى) تترنَّح على نحو واضح ، وتلهث بأنفاسها الأخيرة ، فى محاولة منها للسيطرة على الموقف ، أو استعادة قبضتها عليه ..

وهكذا جاءت التقارير الأوليَّة للكاتب الجاسوس مُخيبة للآمال على نحو لم يسبق له مثيل ، وأصابت البريطانيين والأمريكيين بحالة من الإحباط والقلق ، كما لو أنهم قد خسروا الحرب بالفعل ..

وراح الجميع يُعيدون دراسة الموقف مرة أخرى ..

ومن وجهة نظر (موم) ، التى حملها التقرير التالى ..

فبعد ما رآه (موم) هناك ، فى (بيتروجراد) ، كان يرى أن الحل الوحيد ، لتفادى ما حدث ، بعد الدعاية الألمانية الهائلة ، هو إغراق حكومة (كيرنيسكى)

الثورية المؤقَّتة ، بأطنان من الأموال ، تكفى لتوفير الطعام للشعب الروسى ، حتى تخمد الأبواق الدعائية ، المستندة إلى جوعه ، ولا تجد صدى لديه ..

هذا لأن الشعوب كالجيوش .. تسَير دومًا على بطونها ..

أما الحل البديل - من وجهة نظر (موم) - لضمان استمرار (روسيا) فى القتال ، فلم يكن سوى التدخل العسكرى المباشر فيها ..

وكانت فكرة أكثر جنونًا ..

ولا أحد يدرى ما إذا كانت فكرة (موم) الأولى قابلة للتنفيذ أم لا ، فقد راح (وايزمان) يدرسها بنفس الدقة والإحكام ..

والبطء أيضًا ..

وقبل أن يتخذ مع الأمريكيين قرارًا حاسمًا بشأنها ، كانت الأمور قد أفلتت من قبضتهم بالفعل ..

لقد نجح الألمان فى عملية (القطار الحديدى) ووصل (لينين) وباقى زعماء البلاشفة إلى (موسكو) ،

رافعين أيديهم بعلامات النصر ، للشعب الذى استقبلهم بلهفة لا مثيل لها ، وحماسة منقطعة النظير ..

وجرت الأحداث بسرعة لم يتوقَّعها أحد قط ..

وبقفزة مدهشة ، اعتلى البلاشفة مقاعد السلطة ..

وانهارت حكومة (كيرينسكى) الثورية المؤقَّتة ..

بل إن هذا الأخير فرَّ من البلاد كلها ، ولم يتوقَّف إلا ليلتقط أنفاسه فى المنفى ، الذى قضى فيه ما تبقَّى من العمر ..

وسقطت قلوب الحلفاء بين أقدامهم ..

ومنذ اللحظة الأولى للحكومة البلشيفية الجديدة ، تم إعلان الرفض التام والكامل للحرب ، والرغبة الصادقة فى السلام ، وفى توقيع صلح منفرد مع (ألمانيا) ..

وقد كان ..

وهنا .. هنا فقط ، أدرك (موم) أن موقفه شديد الحساسية والخطورة ، وطالب البريطانيين بضرورة

العمل على إخراجه من ذلك الفخ ، وإعادته إلى (سويسرا) ، بأية وسيلة كانت ..

ولم يتخل البريطانيون عن رجلهم ..

لقد أرسلوا مدمرة بريطانية كاملة من أجله ..

وكان على الكاتب الكبير الشهير أن يلعب ، ولأول مرة فى حياته ، دور الجاسوس بحق ، فقد اضطر للتسلل إلى الساحل ، والفرار بزورق صغير ، تعطل قبل أن يبلغ المدمرة ، مما أجبره على السباحة فى المياه الباردة حتى نقطة الالتقاء ..

ولقد كان لتلك المغامرة المحدودة تأثيرها البالغ عليه ..

لقد تدهورت صحته أكثر وأكثر ، حتى إنه بلغ (سويسرا) فى هيئة أشبه بالهيكل العظمى ، وبشحوب فاق شحوب الموتى ..

وفى الوقت الذى أصبح فيه (سومرست موم) نزيلاً ،

فى واحدة من أشهر الصحات السويسرية ، كان (وايزمان) قد أقنع الرئيس الأمريكى (ويلسون) بالقيام بأكبر حماقة سياسية عسكرية فى التاريخ ..

فقد أقنعه بشن حملة عسكرية على حكومة (روسيا) البلشفية ؛ لإجبارها على الاستمرار فى حربها ضد (الألمان) ..

والعجيب أن (ويلسون) قد فعلها ، على الرغم من كثرة معاونيه ومستشاريه ..

وقام بالحملة العسكرية ..

ولكن حتى هذا لم يكتب له النجاح ..

فلقد انتهت الحرب بهزيمة (ألمانيا) ، وانهيار الإمبراطورية العثمانية ، ثم اندلعت بعدها الحرب الأهلية فى (روسيا) ، فوقع الرئيس (ويلسون) مجموعة من القرارات ، تصور لحظتها أنها قادرة على تغيير وجه التاريخ ..

إنزال قوات الحلفاء فى (روسيا) ، يدعمهم ثلاثة عشر ألف جندى أمريكى ..

القيام بعدد من العمليات السرية ، لتحطيم النظام البلشفى فى مهده ..

دعم الجبهة المعادية للبلاشفة علانية ..

وكانت كارثة ، وفضيحة لم ينسها التاريخ قط ..

ولكن من المؤكد أن ما أراده (ويلسون) ، ومن خلفه (وايزمان) قد حدث ..

فتلك الحماقة غيرت بالفعل وجه التاريخ ، بما صنعته من عداء قوى ودائم ، بين النظام البلشفى ، وكل الأنظمة التى عادته ، وعلى رأسها النظام الرأسمالى الأمريكى ..

والله (سبحانه وتعالى) يعلم ، ماذا كان يمكن أن يحدث ، لو لم يستقبل الحلفاء ، ذلك النظام البلشفى بتلك الروح العدائية القتالية ، منذ لحظته الأولى !!

أما (موم)، فقد تعافى، بعد فترة من الوقت، وصار كل همه هو أن يثبت لجهاز المخابرات البريطانى، وبالذات لرئيسه (ويليام وايزمان)، أنه كان جاسوسًا مخلصًا، وأن كل تقاريره كانت حقيقية وواقعية تمامًا ..

ولم يعلق أحد على هذا ..

أو يبالى به ..

فمن وجهة نظرهم جميعًا، كان (موم) عميلاً مستهلكًا، من الناحية الصحية والنفسية، حتى إن أحدًا لن يفكر فى إسناد مهمة جديدة إليه ..

ولكن (موم) نفسه لم يدرك هذا، إلا فى أوائل الخمسينات، وعندئذ اتخذ قرارًا تمرديًا، شأن أى كاتب، وأصدر كتابه الشهير (كنت جاسوسًا) ..

وكان الكتاب ـ آنذاك ـ قنبلة فى الأوساط الأدبية والسياسية معًا، فلم يكن أحد يتصور أن يكون الكاتب الشهير عميلاً للمخابرات البريطانية على هذا النحو ..

ومن المؤكد أن الروس قد عضوا بنان الندم، لأنهم تركوه يجول فى بلادهم، ويحصل على معلومات بهذه البساطة، وتمنوا لو أنهم سحقوا أناقته المفرطة وعينيه الثاقبتين فى حينه ..

ولم تعلق المخابرات البريطانية على كتاب (موم) ..

وتجاهلته السلطات الأمريكية تمامًا ..

أما الروس، فقد أنكروا أن يكون (موم) قد دخل إلى بلادهم، فى أى زمن مضى ..

وعلى الرغم من كل هذا، فقد حطم كتاب (موم) كل أرقام المبيعات القياسية، واحتل مكانه لعام كامل، على رأس قائمة أكثر الكتب مبيعًا، حتى إن الزهو والغرور قد أصابا الكاتب بشدة، وبدأت كتاباته تتخذ منحنى آخر ..

واتجاهًا عجيب ..

لقد اتجه بغتة، إلى أدب الفجور، على نحو صدم مشاعر المجتمع الأوروبى والعالمى كله، وأثار

غضبًا واشمئزازًا لا مثيل لهما ، حتى إن البعض قد أسقط كل أعماله وكتاباته السابقة ، ولم يعد يعترف سوى بأنه كان يومًا أديبًا جاسوسًا ..

جاسوس قلم ..

* * *

مذكرات رجل مخابرات

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورْ حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

مخابرات .

١ ـ البداية ..

لست أرى أية نقطة ، ينبغى اعتبارها بداية لكل شىء !

أية مرحلة من حياتى ، يمكن اعتبارها لحظة تكوّنى الحقيقية كرجل مخابرات ..

أهى تلك الأيام فى حداثتى ، التى كنت أطالع فيها روايات الجاسوسية بمنتهى الشغف ، والتى كنت أقف خلالها فى طابور طويل ، أمام دار العرض السينمائى ، القريبة من منزلى ؛ لمشاهدة أحدث أفلام ذلك العميل السرى البريطانى الشهير ، الذى كنا نتابع صراعاته العنيفة فى انبهار ، وهو يخوض عشرات المعارك على الشاشة ، مع أشرار من كل نوع ، يسعون كلهم للسيطرة على العالم ، وكأن السيطرة على دولة واحدة ، أو حتى قارة كاملة ، ليست حلم العباد أو غاية المراد ..

فى تلك الفترة ، تصورت أن هذا هو عالم المخابرات ..

مواجهات ، وصراعات ، وحسناوات ، ورصاصات ، ومطاردات ، وانفجارات ، وأطنان من النيران ، تملأ حياة البطل ، حتى كلمة النهاية ، دون أن تلسعه شرارة واحدة منها ..

وكما يحدث لكل من فى مثل سنى - آنذاك - رحت أسأل الكبار فى حماسة عن كيفية انضمامى إلى ذلك العالم المثير ، والكل إما أن يبتسم ساخرًا ، أو مشفقًا ، أو يجيبنى إجابات باهتة ، غامضة ، مبهمة ، زادتنى غضبًا وحماسة ، ولهفة إلى ذلك العالم المبهر ..

ثم تقدَّم بى العمر ، وبدأ اهتمامى بروايات وأفلام الجاسوسية يقلّ ، مع مولد اهتمامات أخرى ، وتفاصيل حياتية مختلفة ، حتى لم أكد أنتهى من المرحلة الثانوية ، إلا وقد فتر اهتمامى بهذا الأمر تمامًا ..

أو هكذا تصورت ..

فجزء ما من أعماقى ، كان يحمل تلك الرغبة ، فى جزء دفين من عقلى الباطن ، لم أشأ الاعتراف به أبدًا ، على الرغم من أننى قد بذلت جهدًا خرافيًا ، لإقناع والدى بقبول التحاقى بإحدى الكليات العسكرية ، بدلاً من الكلية المرموقة ، التى تمنت والدتى دومًا التحاقى بها ، متصورة أنها ستقودنى إلى مستقبل لامع ، شبيه بمستقبل خالها ، الذى تملأ أخباره الصحف والمجلات ، وتطالعنا صورته كل حين وآخر ، على شاشة التلفاز ، ليتحدَّث برصانة عن آخر وأحدث الكشوف العلمية والطبية ..

ولم يكن الأمر سهلاً ..

ولكننى ، والحق يقال ، قاتلت بكل قوتى ..

وبكل ذكائى أيضًا ..

فبطبيعة شخصيتى ، كنت أدرك أنه من المستحيل أن تهزم الأفكار بالقوة ..

مهما كانت الأفكار ..

ومهما بلغت القوة ..

وعلى الرغم من معارضة والدى الشديدة ، وغضب أمى العنيف ، انتهت المعركة لصالحى ، وخاصة بعد نجاحى فى تجاوز الكشوف والفحوص الطبية والرياضية اللازمة ، وقبول التحاقى بتلك الكلية العسكرية ..

ورفضت أمى توديعى ، وأنا فى طريقى ، إلى يومى الأوَّل بالكلية ، فى حين ابتسم أبى ابتسامة باهتة ، وهو يتمنى لى التوفيق فيما اخترت .

وكانت البداية ..

أو يمكننا اعتبارها البداية الثانية ، التى راودنى شعور عجيب ، وأنا أتجه إليها ، بأنها ستغيِّر مجرى حياتى كلها .. تمامًا ..

والواقع أن كل ما تلا هذا كان يؤكِّد أننى لم أُخلق ، إلا لهذا النوع من الحياة ..

لقد توافقت بسرعة ، مع طبيعة الحياة العسكرية

الصارمة فى الكلية ، وتعايشت معها على نحو أدهش رؤسائى قبل زملائى ، بل ورحت أتطوَّر فيها بسرعة ملفتة للنظر ..

ملفتة للنظر بحق ، وليس كتعبير مجازى ..

وهذا ما أدركته فيما بعد ..

وفى أوَّل إجازة لى ، استقبلتنى أمى بكل لهفة الدنيا وشوقها ، وغمرتنى بأطنان من حبها وحنانها واهتمامها ، على نحو جعلنى أدرك أن غيابى قد فاق غضبها وانتصر عليه ، وأنها قد استسلمت أخيرًا لاختيارى ..

ولا يمكنكم أن تتصوَّروا كم ملأ هذا نفسى بارتياح غامر ، جعلنى أنام ملء جفنىَّ ، فى كل ليلة احتوانى فيها فراشى القديم ..

ولكن المدهش أننى ، وعندما حان موعد عودتى إلى الكلية ، كنت عائدًا إليها بشوق عجيب ، كما لو أننى قد ارتبطت بتلك الحياة ارتباطًا وثيقًا ، تغلغت فى كيانى ، وجرى فى عروقى مجرى الدم ..

ومع مرور الأيام والأسابيع والشهور ، كان ارتباطى بالحياة العسكرية يتضاعف أكثر وأكثر ، وتفوقى فى المجالات الرياضية يلفت الانتباه ، مع شهادة التقدير التى حصلت عليها ، فى مجال الرماية ..

وعلى الرغم من هذا التفوق ، كانت لدى اهتمامات أخرى ، لايشاركنى فيها سوى قلة نادرة من الزملاء ، مثل تعلم اللغات وبعض المهارات البسيطة ، فى أوقات الفراغ وساعات الراحة ..

وكان هذا أيضًا معروفًا ..

وملحوظًا ..

لم أكن أدرى أيامها أن مراحل التقييم تبدأ ، من هذه الفترة المبكرة ، وأنه هناك عيون ترصد لمحات التفوق ، فى كل المجالات ..

وكل الكليات ..

فلا أحد يخبرك ، أو ينبهك ، أو حتى يبدى اهتمامه فى وضوح ..

كل شىء يتمّ بدقة ، وحرفية ، ومهارة مدهشة ، تفوق بكثير ما كنا نراه على الشاشة فى حداثتنا ..

المهم أن أعوام الكلية قد انقضت بسرعة ، وبدأت عملية توزيعنا على أفرع الجيش المختلفة وفقًا لمهاراتنا ، وقدراتنا ، وأمور أخرى عديدة ، لم يتمّ الإفصاح عنها قط فى حينها ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد استدعانى مدير الكلية ، قبيل حفل التخرُّج ببضع ساعات ، واستقبلنى بابتسامة هادئة فى مكتبه ، وهو يسألنى :

- هل تعلم إلى أى سلاح سيتم توزيعك ؟!

لم أشعر بالارتياح للسؤال ، خاصة وأنه كان هناك رجل فى ثياب مدنية ، يجلس على المقعد البعيد ، فى نهاية الحجرة ، ويتطلّع إلىَّ فى اهتمام هادئ ، إلا أننى ، وعلى الرغم من كل شىء شددت قامتى ، مجيبًا بلهجة عسكرية قوية :

- إلى القوات الخاصة .

لاحظت اتساع ابتسامة المدير ، وتلك النظرة التى تبادلها مع ذلك المدنى ، والتى لم تستغرق سوى ثانية واحدة ، قبل أن يسألنى مرة أخرى :

- ولماذا توقَّعت هذا ؟!

أجبت فى سرعة :

- بسبب التكوين الجسمانى ، والتفوق الرياضى ، ووسام الرماية .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام صدره ، فى شىء من الزهو ، فى حين أومأ المدنى برأسه ، متمتمًا :

- عظيم .

وأمرنى المدير بالعودة إلى ثكنتى ، دون أن يشرح لى سبب أسئلته ، وتركنى فى حيرة من أمرى ، وأنا أتساءل : لماذا لم يحدث هذا لغيرى ؟!

ثم لماذا يحدث ؟!

ولم أجد جوابًا لسؤالى هذا ..

أى جواب !!

ولقد تم توزيعى فى القوات الخاصة بالفعل ..

وفى منطقة نائية بعيدة أيضًا ..

ولقد انزعجت والدتى بشدة ، مع بعد المسافة ، واقترابها من الحدود ، فى الوقت الذى يلوح فيه شبح الحرب على الأبواب ، ولكننى ابتسمت لها ، وهدأت من روعها ، وأخبرتها أنها مجرَّد فترة محدودة ، أعود بعدها إلى العاصمة ..

وعلى الرغم من أننى كنت أجهل كل المعلومات ، إلا أننى لم أكن كاذبًا ..

فمهما طال بقائى فى القوات الخاصة ، عند خط المواجهة ، فهى فترة محدودة حتمًا .. فترة تنتهى بانتقالى ..

أو حتى بمصرعى ..

أما عن عودتى إلى العاصمة ، فقد تصوَّرت أيامها أنه لابد من دفنى فيها ، فى حالة مقتلى ، باعتبارى من أبنائها ..

مجرَّد تصوّر ..

وعند خط المواجهة ، كانت التدريبات أكثر قوة ..

وأكثر عنفًا ..

وأكثر تطوّرًا ..

وكانت هناك مناوشات ، بيننا وبين العدو ..

مناوشات بسيطة أحيانًا ..

وعنيفة معظم الوقت ..

وبينما تتطوَّر الأمور ، وتشتعل أكثر وأكثر ، فوجئت بإشارة عاجلة ، تطلب منى العودة إلى العاصمة فورًا ..

ودون توضيح الأسباب ..

وعلى الرغم من عدم ارتياحى لترك خط المواجهة ، فى ظروف كهذه ، كان من المحتم أن أطيع الأوامر ، دون أية مناقشة ..

لذا ، فقد سافرت فورًا إلى العاصمة ..

وفى مكان تم تحديده بأسلوب معقَّد ، لم يمكننى هضمه ، التقيت بذلك المدنى نفسه ، الذى رأيته فى مكتب مدير الكلية العسكرية ، منذ ما يقرب من العام ..

كان يجلس وحده ، فى حجرة واسعة كبيرة ، لاتحوى سوى مكتب بسيط قديم ، خلفه مقعد من الخشب ، أشبه بتلك المقاعد التى نراها فى مشارب الطرقات ، وأمامه مقعد من الطراز نفسه ، أشار إليه المدنى ، وهو يقول فى هدوء ، لم يخل من صرامة حازمة :

ـ أجلس أيها الضابط .

جلست أمامه مشدود القامة ، كما علمونا فى الكلية العسكرية ، ولكنه ابتسم ، قائلاً بنفس الهدوء :

- يمكنك أن تسترح .

كان مطلبًا عسيرًا ، فى تلك الظروف ، التى لم أشعر فيها بالارتياح أبدًا ، وأنا أبذل جهدًا مضنيًا ؛ للسيطرة على توترى وأعصابى ، مع ذلك الصمت المطبق ، الذى لذت به ، حتى سألنى ذلك المدنى ، وهو يتأملنى فى اهتمام :

- هل يروق لك عملك ؟!

أجبته فى حذر :

- بالتأكيد .

سألنى :

- لماذا ؟!

أدهشنى سؤاله ، على الرغم من مباشرته وبساطته ، وجعلنى ألوذ بمزيد من الحذر ، وأنا أجيب فى تحفظ :

- إنه وسيلة لخدمة الوطن ، فى مثل هذه الظروف .

تراجع فى مقعده ، وهو يسألنى :

- أكل ما يهمك هو أن تخدم وطنك ؟!

بلغ حذرى مبلغه ، وأنا أجيب :

- إننى أحب عملى .

قال فى سرعة :

- نعلم هذا .

أدهشتنى ، وضاعفت من توترى ، صيغة الجمع التى استخدمها ، والسرعة التى نطق بها كلماته ، فانعقد حاجباى فى شدة ، جعلته يبتسم ابتسامة خفيفة ، تلاشت فى سرعة ، وهو يقول :

- إننا نتابعك منذ فترة .. من قبل حتى أن تحمل أول رتبة عسكرية على كتفيك .

رددت فى دهشة عصبية :

ـ تتابعوننى ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، فهتفت :

ـ ومن أنتم بالضبط ؟!

تطلَّع إلىَّ طويلاً فى صمت ، وكأنه يتعمَّد أن يثير توترى إلى أقصى حد ؛ كوسيلة لدراسة ردود أفعالى ، قبل أن يعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ إننا نعرض عليك العمل معنا .

قلت ، فى مزيج من الحذر والتوتر والدهشة :

ـ معكم ؟! ولكننى ضابط بالجيش ، وواجبى أن ....

قاطعنى فى حزم صارم :

ـ واجبك سيظلّ كما هو .. فقط ستتغيَّر الوسيلة ، التى تقدِّمه للوطن بها .

ثم مال نحوى أكثر ، وحمل صوته طنًّا من الحزم والعزم ، وهو يتطلَّع إلى عينىَّ مباشرة ، مستطردًا :

ـ ستظلّ تقاتل العدو ، ولكن ليس بسلاحك وعضلاتك .

ورفع سبَّابته ؛ ليشير إلى رأسه ، مضيفًا :

ـ بل بعقلك .

الطريقة التى نطق بها الكلمة الأخيرة ، جعلت تيارًا كهربيًّا قويًّا يسرى فى كيانى ، وجعلتنى أنتفض على مقعدى ، وأنا أهتف ، بكل حماسة الدنيا :

ـ حياتى فداء للوطن .

تألَّقت عيناه ، وهو يتراجع مرة أخرى فى مقعده ، وقفزت إلى شفتيه ابتسامة ، استقرَّت لعشر ثوان كاملة هذه المرة ، قبل أن يستعيد هدوءه الصارم الحازم ، وهو يفتح درج المكتب القديم ، ويلتقط منه عدة ورقات مطبوعة ، وضعها مع قلم حبر أمامى ، وهو يقول :

ـ قم بملء كل البيانات .. وبمنتهى الدقة .

وعلى الرغم من أننى لم ألق المزيد من الأسئلة ، فقد التقطت القلم والأوراق فى حماسة وحزم ، و ...

وكانت هذه هى البداية ..

الحقيقية .

* * *

(تابع فى الكتب القادمة)

روميو وجوليت

(من وقائع الجاسوسية)

لم يكد القطار القادم من (روما) يتوقَّف فى (باريس) ، فى ذلك الصباح الدافئ ، من مارس ١٩٣٩م ، حتى قفز المصورِّ الفوتوجرافى (روميو سيلافيو) من مقعده مذعورًا ، وكأنما استيقظ على التو من نوم عميق ، وهتف بالراكب الجالس أمامه فى المقصورة :

ـ هل .. هل وصلنا إلى (باريس) ؟!

نطقها بفرنسية ركيكة للغاية ، جعلت الجالس يمطّ شفتيه فى شىء من الضيق ، وهو يتمتم فى ضجر واقتضاب :

ـ نعم .

كان من الواضح أن صحبة ذلك المصورِّ الشهير ، الذى تزخر صحف ومجلات (إيطاليا) بصوره الرائعة ، لم تكن ممتعة على الإطلاق ، وأنها قد أضجرت رفيق مقصورته إلى حد رهيب ، حتى إنه أسرع يلتقط حقيبته ، ويُغادر القطار كله ، وكأنَّما يخشى لو أبطأ قليلاً ، أن يلحق به الإيطالى ، ويواصل صحبته المملة ..

أما (روميو) ، فقد ارتبك بحقائبه الثلاث الضخمة ، وراح يحمل إحداها فيفقد الأخرى ، ويلتقطها فتسقط الثالثة ، حتى تطوَّع مفتش القطار بمعاونته ، إلى أن غادر القطار ، وهو يلهث فى شدة ، وكأنَّما خرج على الفور من معركة حامية الوطيس ..

وفى تلك الفترة ، لم يكن من العسير أن يجد واحدة من سيارات الأجرة تحمله إلى فندقه ، فى قلب (باريس) ، مع حقائبه الضخمة ، التى تحوى كل ثيابه وأدواته ومعدات التصوير ، التى كانت تحتلّ فى تلك الآونة مساحة ضخمة جدًّا ..

وفى الفندق ، ولأن (روميو سيلافيو) ثرثار كبير ،

فقد عرف الكل ، من عاملين ونزلاء ، وحتى ضيوف عابرين ، أن المصورِّ الإيطالى الشهير هنا ، لأن واحدة من كبريات المجلات الإيطالية قد كلفته مهمة عمل تحقيق كبير مصورَّ ، حول برج (إيفل) ، والتطويرات التى تعتزم الحكومة الفرنسية إجراءها فيه ..

وعلى الرغم من ثرثرته ، كان (روميو) شخصًا مهذَّبًا رقيقًا ، يولى عمله اهتمامًا بالغًا ، ويحرص أشدّ الحرص على عدم التدخُّل فى أمور الآخرين ، وإن أصرّ على أن يُعاملهم بمنتهى المودَّة والصداقة ، وعلى مراعاة مشاعرهم واهتماماتهم ، مما أكسبه بسرعة صداقة العديدين ، واحترام الكل ، واهتمام موظفى وعمال الفندق ، لما يمنحهم إياه من إكراميات سخية ..

وفى كل مجلس من مجالس الفندق ، كان لـ (روميو) مقعده الخاص ، وأحاديثه الشيقة ، وصوره الفوتوجرافية ، التى تخلب لب الكل ، وتُبهرهم ، وتثير بينهم عاصفة من الجدل ، حول زاوية التصوير ، والإضافة ، وغيرها من العوامل ،

التى يشرحها لهم (روميو) فى بساطة مشوّقة ، وأسلوب أخّاذ ، مما يجعلك توقن من أن الضجر الذى أصاب راكب القطار فى البداية ، كانت مشكلته هو ، وليست مشكلة المصوّر الإيطالى ، الذى أجمع الكل على حلاوة لسانه ، وطلاقة أسلوبه ، وقدرته المدهشة على جذب الانتباه ، وشد الآذان ، وأخذ القلوب ، على نحو لم ينازعه فيه أحد ..

ولكن فجأة ، لم يعد (روميو) يظهر فى الأحاديث والمجالس الليلية ..

لا داخل الفندق ، ولا حتى خارجه ..

كان يخرج إلى عمله ، ثم يعود فى المساء صامتًا حزينًا ، ويختفى فى حجرته ، حتى صباح اليوم التالى ..

وعندما طال الأمر ، حسم موظف الاستقبال فى الفندق تردُّده ، وسأله ذات ليلة فى حجرته :

ـ قل لى يا مسيو (سيلافيو) : ماذا أصابك هذه الأيام ؟!

تردَّد (روميو) طويلاً ، مما أصاب موظف الفندق بالحرج ، فتراجع مُغمغمًا :

ـ معذرة يا مسيو (سيلافيو) .. إننى لم أقصد أن ..

قاطعه (روميو) فى عصبية :

ـ لقد نفدت نقودى .

ارتفع حاجبا الموظف فى دهشة ، وهو يهتف غير مُصدِّق :

ـ عفوًا !

كرّر (روميو) فى عصبية أكثر :

ـ لقد نفدت نقودى .. كل فرنك منها .

ثم أشاح بوجهه ليُخفى مرارته ، وهو يُضيف :

ـ إننى أقطع المسافة إلى البرج سيرًا على الأقدام ، ولم أتناول الطعام منذ يومين ، باستثناء طعام الإفطار ، الذى يُقدّمه الفندق للنزلاء .

بُهت الموظف للقول ، وظلَّ يُحدِّقُ فيه لحظات ذاهلاً ، قبل أن يتساءل :

ـ وماذا عن تلك المجلة ، التى أرسلتك إلى هنا ؟!

هزَّ (روميو) رأسه فى أسى ، وزفر فى مرارة ، قائلاً :

ـ لقد دفعوا نصف الأجر مقدمًا ، ويصرُّون على عدم دفع ليرة واحدة ، حتى يتسلموا الصور النهائية .

وعاد يزفر فى حرارة ، متابعًا :

ـ لقد كان مبلغًا سخيًّا ، ولكننى كنت مبذرًا كعادتى .

ثم قلب كفيه ، مستطردًا بصوت أقرب إلى البكاء :

ـ ولست أدرى حتى كيف أُسدِّد أجر الفندق ، عندما يحين صباح الاثنين .

انعقد حاجبا الموظف ، وهو يدرس تلك المشكلة فى ذهنه ، ويُقلبها على كل الوجوه ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ لست أصدق أن موهوبًا مثلك لا يجد لقمة عيشه ، هنا فى (باريس) يا مسيو (سيلافيو) .. قل لى : هل بحثت عن عمل ؟!

رفع (روميو) عينيه إليه ، كغريق يتعلق بقشة ، وهو يسأل فى لهفة :

ـ أهذا ممكن ؟!

أجابه الموظف بدهشة أكبر :

ـ وما المانع ؟!

هزَّ (روميو) كتفيه فى تردد ، قائلاً :

ـ أعنى أننى أجنبى ، و ..

قاطعه الموظف ، هاتفًا بدهشة مستنكرة :

ـ أجنبى ؟! ثم قهقه ضاحكًا ، قبل أن يضع يده على كتف الإيطالى ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك ما زلت تجهل (باريس) .. (باريس) ياصديقى هى عاصمة النور والفن والجمال .. وكلها كما ترى أمور لاوطن لها ، فالفن فن ، أيًّا كانت جنسية صاحبه ، وكل صحيفة ومجلة هنا سيُسعدها أن يعمل بها مصورٌ عبقرى مثلك ، ولو لفترة مؤقَّتة .

هتف (روميو) فى انبهار :

- هل تعتقد هذا حقًا ؟!

هتف الموظف بحماسة جارفة :

- بالتأكيد .

ثم مال نحوه ، وغمز بعينه ، مضيفًا :

- اترك لى هذا الأمر .

وكان من الواضح أن الموظف يعرف ما يقوله جيدًا ، فقبل أن تشرق شمس الاثنين ، كان (روميو) قد سدَّد أجر الفندق كاملاً ، بالإضافة إلى بقشيش سخى لكل العاملين ، بعد أن تعاقد مع كبرى المجلات والصحف الفرنسية ، وحصل على دفعة ضخمة مقدمًا ، اعترافًا بشهرته وعبقريته ..

وبمعاونة الموظف أيضًا ، وكوسيلة لضغط النفقات ، انتقل (روميو سيلافيو) من الفندق ، إلى شقة بسيطة ، فى الحى اللاتينى ، ونقل إليها كل أدواته ومعداته ، التى تحتلّ تلك الحقائب الثلاث الكبيرة ..

وفى غضون أيام ، كانت (باريس) كلها تعلم بأمر المصوِّر الإيطالى العبقرى ، الذى ملأ الصحف والمجلات بصوره المدهشة وبخاصة تلك الصورة الرائعة التى التقطها للبارون (شيفاليد) ، والتى احتلت غلاف أشهر مجلة اقتصادية حينذاك ..

وكانت تلك الصورة بداية لمرحلة جديدة ..

ودسمة ..

فمع أناقة الصورة ، انهالت على (روميو) الطلبات ، لالتقاط صور الأثرياء والمشاهير ، وحتى جنرالات الجيش ، وفرقهم ، وضباطهم ..

وعلى الرغم من انهمار الأموال عليه كالمطر ، رفض (روميو) فى إصرار الانتقال من شقته البسيطة فى الحى اللاتينى ، إلى أخرى فاخرة فى (الشانزليزيه) ، بحجة أن الإقامة فى الحى اللاتينى أكثر إلهامًا ، وتمنحه قدرة أكبر على الإبداع ..

كانت هذه هى الحجة الرسمية فحسب ..

ولكن السبب الحقيقى كان يختلف تمامًا ..

وحتى يمكننا استيعابه ، دعونا ننقل ذلك المشهد ، الذى دار فى أحد الأحياء الهادئة ، عند أطراف (باريس) ..

فلقد وصل (روميو سيلافيو) إلى ذلك الحى ، دون أدواته ، التى تصحبه فى كل تحركاته ، وراح يجول فى المكان الهادئ الأنيق طويلاً ، حتى اطمأن تمامًا إلى أن أحدًا لا يتبعه ، ثم اتجه بعدها إلى نقطة التقاء متفق عليها ، وجلس على المقعد الثالث إلى اليمين ، من مقاعد الحديقة العامة ، و ..

وهنا ظهر (فون دار) ..

و(فون دار) هذا ضابط مخابرات ألمانى ، أسند إليه الجنرال (هملر) شخصيًا مهمة جمع كل المعلومات المطلوبة عن الجيش الفرنسى ، واستعداداته العسكرية والحربية ، وقدرات خط (ماجينو) ، أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ، حتى ذلك الحين ، والذى أعلنت (فرنسا) أنه يكفى لصد الجيوش الألمانية ، مهما بلغت قوتها ..

وفى تلك الحديقة العامة ، عند أطراف (باريس) ، التقى (فون دار) بعميله رقم واحد فى (فرنسا) ، (روميو سيلافيو) ، وجلس إلى جواره ، قائلاً بالإيطالية :

ـ رسالتك اللاسلكية أمس كانت جيدة .

ابتسم (روميو) ، قائلاً :

ـ عظيم .. هذا يعنى أن جهاز اللاسلكى يعمل بكفاءة .

غمغم (فون دار) :

ـ بالضبط .

ثم استرخى فى مقعده ، وهو يسأله :

ـ هل استعددت للخطوة التالية ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ صرت قريبًا للغاية منها .

سأله :

ـ كيف ؟!

هزَّ (روميو) كتفيه ، قائلاً :

ـ إننى مدعو غدًا لحضور حفل ساهر ، فى منزل الجنرال (موريس جودو) ، قائد سلاح الفرسان ، مع عدد من كبار ضباط الجيش وجنرالاته ، حتى التقط لهم صورة جماعية .

انعقد حاجبا (فون دار) بشدة ، وهو يُغمغم فى اهتمام بالغ :

ـ سلاح الفرسان ؟!

أومأ (روميو) برأسه ، قائلاً فى شىء من الزهو :

ـ نعم .. سلاح الفرسان .

استدار إليه (فون دار) فى حدة ، وهو يقول بلهجة شفت عن مدى أهمية وخطورة الأمر :

ـ وطد علاقتك به جيدًا يا (سيلافيو) .

قال الإيطالى فى دهشة ، وكأنما لم يفهم العبارة :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لاتدعنى أكرِّر قولى أبدًا .. أخبرتك أن توطد علاقتك بالجنرال (جودو) هذا جيِّدًا ، بأية وسيلة كانت .. اكتسب صداقته ، أو صداقة ضباطه ، أو حتى انضم إلى سلاح الفرسان .. المهم أننا نُريدك هناك فى المرحلة القادمة .. وبأى ثمن .

كان (روميو) يشعر بدهشة كبيرة ، لهذا الاهتمام المبالغ بالأمر ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، كان يُدرك ـ كجاسوس محترف ـ أنه ليس من حقه معرفة الأسباب أو البحث عنها ..

كل ما عليه هو تنفيذ المطلوب ..

وبأفضل وسيلة ممكنة ..

لذا ، فقد ذهب (روميو) إلى حفل سلاح الفرسان ، وهذه الفكرة تملأ رأسه تمامًا ..

ولكن مع اللحظات الأولى للحفل ، طارت كل أفكار الدنيا من رأسه ، وفرت بأقصى سرعتها ، عندما احتلت

عينيه ، ورأسه ، وكيانه كله صورة واحدة ، لم ير أجمل منها ، فى حياته كلها ..

صورة (جوليت) ..

(جوليت بوردو) ، الفاتنة الباريسية ، ذات الاثنين والعشرين عامًا ، والتى تبدو كقطعة من القشدة ، وسط ذلك الحفل المهيب ، وهى تجوّل برقة ونعومة ودبلوماسية بين الضيوف ، للترحيب بهم ، والاهتمام بشئونهم ..

وبكل لهفة وانبهار الدنيا ، سأل (روميو) أقرب الرجال إليه :

ـ من هذه الفاتنة !

هتف الضابط الفرنسى مذعورًا :

ـ اخفض صوتك بالله عليك يارجل .. إنها (جوليت)، زوجة الجنرال (جودو) ، وهو يغار عليها بشدة .

اتسعت عينا (روميو) بدهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ زوجته ؟! مستحيل !

كان محقًا فى دهشته واستنكاره ، فالجنرال (جودو) كان رجلا فظًا ، خشن المظهر ، يجعله شاربه الضخم المفتول أشبه بمصارع بدائى ، منه بقائد من قادة الجيش الفرنسى ، كما أنه فى الثانية والخمسين من عمره ، وليس من العدل أو المنطق أن يتزوج قطعة زبد طازجة ، وفراشة رقيقة حالمة ، مثل (جوليت) هذه ..

ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يغار عليها حتى الموت ..

بل وحتى آخر قطرة من دمه ..

وطوال الحفل ، لم يستطع (روميو) رفع عينيه عن (جوليت) ، التى لاحظت اهتمامه البالغ هذا ، فتضرج وجهها بحمرة الخجل ، وحاولت أن تتشاغل عنه بالضيوف والضباط والمدعوين ، إلا أن طبيعة الأنثى فى أعماقها جعلتها تتطلع إليه ، بين الحين والحين ، وقد أسعدها أن تخلب لبه إلى هذا الحد ..

وبأسلوب أنثوى مدروس ، انسحبت (جوليت) من الحفل كله ، إلى شرفة جانبية واسعة ، ووقفت هناك تتمالك جأشها ، وقلبها يخفق فى عنف ، وكيانه كله ينتظر ..

ولم يطل انتظارها ، فقد التقط الإيطالى الرسالة ، وأسرع خلفها إلى الشرفة ، وهو يقول بخفوت صوت :

- هل شعرت إمبراطورة الحفل وزهرته اليانعة بالتعب أو الملل ؟!

ابتسمت فى حياء لإطرائه ، وهى تغمغم :

- إننى ألتقط بعض الهواء النقى فحسب .

انحنى يطبع قبلة ملتهبة على كفها ، وهو يقول :

- كم أحسد هواء الحديقة ، لأنه سيملأ صدر أجمل امرأة فى الكون كله .

رقص قلبها طربًا ، وهى تتأمل وسامته الواضحة ، وقوامه الممشوق ، فغمغمت فى اضطراب خجل :

- أوه .. أنت تبالغ كثيرًا يا مسيو (سيلافيو) .

هتف بسرعة ولهفة :

- (روميو) يا أميرتى .. (روميو) .. أظنه أكثر اسم يناسبك يا مدام (جوليت) ..

ضحكت فى حياء للمفارقة ، وهى تهتف :

- آه .. (روميو) و (جوليت) .. تشبيه خبيث يا مسيو (سيـ ...

هتف :

- (روميو) يا أميرتى .

ضحكت مرة أخرى قائلة :

- تشبيه خبيث يا (روميو) .

اعتدل قائلاً فى خفوت دافئ ، وعيناه تسبحان فى بحر عينيها الأزرق الصافى العميق ..

- بل حقيقة يا أميرتى .. حقيقة يعلنها قلبى ، الذى سقط أسير عينيك ، منذ اللحظة الأولى .

كانت تسمع مثل هذه العبارات من كل ضابط ، تتاح له الفرصة للانفراد بها ، فى أية مناسبة ، ولكنها لم تشعر فى حياتها كلها بمثل هذه السعادة ، التى تشعر بها ، وهى تسمعها من بين شفتيه ..

ربما لأنه أول من ينطقها بهذه الحرارة ..

بكل اللهفة والحب ..

وبلا رغبة أو شهوة مبتذلة ..

لذا فقد خفق قلبها فى عنف ..

وفى حب ..

وقبل أن تجيبه بكلمة حب واحدة ، انتفض جسدها كله فى عنف ، مع صوت زوجها الجنرال (جودو) ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ماذا تفعلان وحدكما هنا ؟!

كادت تسقط فاقدة الوعى ، من فرط الهلع والذعر ، وهوى قلبها بالفعل بين قدميها ، لولا أن استدار (روميو) إلى زوجها فى هدوء وقال بابتسامة بريئة :

ـ كنت أحاول إقناع مدام (جودو) بالتقاط صورة خاصة لها ، وطباعتها بحجم كبير ، يصلح لوضعها داخل إطار أنيق ، فى البهو الرئيسى .

شعرت أن الحجة واهية ، وترقرقت عيناها بالدموع التى كادت تنفجر بالفعل ، لولا أن فتل الجنرال شاربه ، وغمغم بابتسامة كبيرة :

ـ فكرة جديرة بالتفكير بحق .

وعاد قلبها إلى موضعه ، ولكنه صار يخفق هذه المرة بحب جديد ..

حب (روميو) ..

ولأن الجنرال قد اقتنع بالفكرة ، ووجد فيها وسيلة مناسبة للزهو بزوجته الفاتنة ، كما اعتاد دائمًا ، فقد حضر (روميو) إلى منزل الجنرال ، مع بداية الأسبوع التالى ، لالتقاط صورة (جوليت) ..

ولكن الجنرال أصر على حضور التصوير بنفسه ،

مما أفسد خطة (روميو) و(جوليت)، وجعل التقاط الصورة أمرًا مرهقًا سخيفًا ..

إلا أن عبقرية (روميو) جعلت منها صورة رائعة مبهرة، بكل المقاييس ..

صورة سعد بها الجنرال وزوجته كثيرًا، ومنح الأول (روميو) مكافأة سخية، لم يمنحه إياها أى شخص آخر، ولكنها، وعلى الرغم من هذا، لم تبلغ ذرة من المكافأة التى منحته إياها (جوليت)، عندما همست فى أذنه، وهو يصافحها منصرفًا :

ـ الليلة، عند منتصف الليل، فى الحديقة الخلفية .

وطار قلبه فرحًا ..

وفى منتصف الليل تمامًا، التقيا ..

وكان اللقاء حارًا، قويًا، ملتهبًا ..

وعاد (روميو) إلى منزله وكل ذرة فى كيانه ترقص فرحًا وسعادة، بعد أن ظفر بـ (جوليت) التى أصبحت عشيقته رسميًا، بعد تلك الليلة ..

ولكنه، ما إن عاد إلى منزله، حتى تبخرت سعادته وفرحته دفعة واحدة، وحل محلها ذعر مصدوم، عندما فوجئ بضيف فى صالة منزله ..

(فون دار) شخصيًا ..

وعندما حدق فى وجهه ذاهلاً مصعوقًا، ابتسم (فون دار) ابتسامة كبيرة خبيثة، جعلته أشبه بالثعلب، وهو يشعل سيجارته الألمانية الصنع، قائلاً :

ـ أهنئك يا صديقى .. لقد وجدت بالفعل الوسيلة المثلى، لاقتحام سلاح الفرسان ..

سأله (روميو) فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟!

مال (فون دار) نحوه، قائلاً :

ـ أعنى أنه بعدما فعلته، مع مدام (جوليت) الليلة، صار من السهل أن ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسلاح الفرسان كله .

وارتجفت كل ذرة فى كيان (روميو) ، وعجزت ساقاه عن حمله ، فسقط على أقرب مقعد إليه ، فى حين ابتسم (فون دار) فى هدوء ثعلبى ، وهو يضيف :

ـ والآن استعد لتلقى الأوامر الجديدة ، فالجنرال (هملر) شخصيًا يرسل إليك تحياته ، ويؤكد لك أن خطته البسيطة ، التى ستقوم أنت بتنفيذها ، ستقضى بضربة واحدة على سلاح الفرسان الفرنسى كله .

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ إنها خطة عبقرية .. تمامًا كصورك يا عزيزى (سيلافيو) .

كلماته هذه بخرت كل الرومانسية التى وجدت طريقها إلى قلب (روميو) ، فى الأيام الماضية ، وجعلته يدرك أن مهمته فى (فرنسا) ليست الحب والعشق والهيام ، وإنما العمل على قدم وساق ، من أجل (ألمانيا) ، وانتصار (ألمانيا) المنتظر ، وخاصة بعد

أن احتلت النمسا ، وحطمت كل المعاهدات القديمة ، وبدأت زحفها داخل (أوروبا) القلقة الخائفة ..

واستسلم (روميو) لمصيره ، خاصة وأنه لن يفقد (جوليت) ، التى وضعت اسمه فى قائمة كل حفل يقام فى منزلها ، أو حتى فى سلاح الفرسان ..

وعن طريقها ، راح (روميو) يلتقط صور الضباط والجنرالات ، ويحضر كل الحفلات والاجتماعات ، وينقل إلى (برلين) كل ما تلتقطه أذناه من معلومات وأحاديث عابرة ، عن الاستعدادات العسكرية ، وخط (ماجينو) المنيع ..

وبناء على تعليمات (فون دار) ، راح يوعز لعشيقته (جوليت) بأسماء الضباط والجنرالات ، الذين يرغب فى توطيد علاقته بهم ، أو دخول منازلهم ..

وعن طريقها جمع عشرات الأسرار والمعلومات ، وبثها إلى (ألمانيا) ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، أو خلال (فون دار) ..

ثم كانت تلك الليلة ، التى نجحت فيها (جوليت) ،

فى أن تقنع زوجها بانتدابه ، لتصوير حظائر الخيول ، فخر سلاح الفرسان الفرنسى كله ..

ففى الليلة نفسها زاره (فون دار) ، وهو يحمل علبة صغيرة من البلاستيك ، قدمها إليه ، قائلاً ، فى لهجة تشف عن أهمية الأمر وخطورته :

ـ غدًا ستذهب لتصوير حظائر الخيول .. احمل معك هذه العلبة ، وعندما تنفرد بجواد ما ، أخرج الإبرة الصغيرة داخلها ، دون أن تخلع قفازك ، وأوخزه بها ، وكذلك أى جواد آخر حوله ، وبعدها تخلص منها ومن العلبة ، ومن قفازك أيضًا .. هل تفهم ؟!

ولم يفهم (روميو) ..

أو حتى يستوعب ..

فلماذا كل هذه المخاطرة ، من أجل شكة إبرة ؟!

لم يفهم أبدًا ..

ولكنه نفذ المطلوب ..

وبمنتهى الدقة ..

فما إن أصبح وحده داخل حظيرة ما ، حتى أخرج الإبرة ، ووخز بها الجياد الأربعة داخلها ، ثم تخلص من الإبرة والعلبة .. والقفازين أيضًا ..

وعندما أكد لـ (فون دار) أنه قد نفذ المهمة ، فاجأه هذا الأخير بأوامر الجنرال (هملر) ، التى تطالبهما بالعودة إلى (ألمانيا) فورًا ..

وصرخ (روميو) فى ذعر ، وحاول أن يتنصل من الأمر ، وأن يتوسل ، ويتضرع للبقاء فى (باريس) ..

إلى جوار معشوقة روحه وقلبه (جوليت) ..

ولكن (فون دار) رفض تمامًا ..

بل وأصر على ألا يفارقه لحظة واحدة ، طبقًا لأوامر (هملر) ، حتى يحملهما القطار إلى (سويسرا) ، ومنها إلى (ألمانيا) معًا ..

وفى القطار ، كاد (روميو) ينهار باكيا ، لأنه لن يرى معشوقته (جوليت) ثانية قط ، ولكن (فون دار) عنفه بشدة ، وأفهمه أن القاعدة الأولى فى عالم الجاسوسية

هى ألا تقتحمه العواطف قط ، إلا لاستغلالها لتحقيق النجاح فحسب ، أما الجاسوس الذى يقع فى غرام وسيلته ، فهو جاسوس فاشل تمامًا ، وهدده بأن (هملر) سيعاقبه بشدة ، لو تبين ما أصابه ، وأنه من الأفضل أن يتلقى منه المكافأة لا العقاب ..

وحاول (روميو) أن يتماسك ..

وحاول ..

وحاول ..

وربما نجح فى التظاهر بهذا ، فى جزء الجاسوس منه ..

أما جزء المصور الفنان ، فلم ينجح فى محو حب (جوليت) وعشقها فى قلبه قط ..

وفى (برلين) ، استقبله (هملر) بالترحاب ، وأخبره أن تلك الإبرة ، التى وخز بها الجياد ، كانت تحوى ميكروب الجمرة الخبيثة ، وأنه لن يمضى أسبوع واحد ، حتى تصاب تل جياد سلاح الفرسان بالعدوى ،

ثم لا تلبث أن تنهار بعد أسبوع آخر ، ويصبح سلاح الفرسان الفرنسى أثرًا بعد عين ..

ثم منحه مكافأة ضخمة ، وطلب منه أن يلزم (برلين) ، حتى ينتهى الأمر ، وتسقط (فرنسا) فى قبضة (ألمانيا) النازية ..

ولزم (روميو) (برلين) ..

بل لزم شقته الصغيرة داخلها ، لا يأكل أو يشرب ، وهو يسترجع ذكرى كل لحظة قضتها (جوليت) بين ذراعيه ..

أما زوجة الجنرال الشابة ، فقد كانت تجن ، عندما اختفى عشيقها الشاب فجأة ، وراحت تتصرف بعصبية وغضب ، وهى تبحث عنه فى استماتة ، ثم لم تلبث أن سقطت فريسة مرض مجهول ، حار فيه زوجها والأطباء ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه جياد سلاح الفرسان تنهار ، واحدًا بعد الآخر ، وسط فزع الجنرال (جودو) وجنوده وضباطه ، وحيرتهم أمام ما يصيبهم ..

وبضربة مدهشة ، حطمت كل القواعد العسكرية المعروفة ، اقتحم الألمان خط (ماجينو) ، وانقضوا على (فرنسا) ، التى انهارت واستسلمت ، بعد مرور أربعة عشر يومًا فحسب من القتال ..

وما إن انفتحت الحدود بين الدولتين ، حتى هرع (روميو) كالمجنون ، للقاء حبيبته ، وهو لا يدرى كيف سيواجهها بحقيقته ، ويعترف لها بخطة خداعه القذرة ..

ولكن القدر أعفاه من كل هذا ..

فما إن بلغ (باريس) ، حتى كانت بانتظاره صدمة عنيفة ..

لقد اشتد المرض بالحبيبة (جوليت) ، حتى قضت نحبها فى فراشها ، ودموع الحب واللوعة تغرق وجهها ..

وانهار (روميو) تمامًا ، وراح يدور حول منزل

الجنرال (جودو) كالمجنون ، وهو يناجى حبيبته ، ويناشدها العودة إليه ، حتى ولو دفع روحه ثمنًا لروحها ..

وكل هذا دون أن يضع فى حلقه لقمة طعام واحدة ، أو حتى شربة ماء ..

ومع الوقت ، تحول الأمر إلى جنون حقيقى ، مع نحول واستنزاف شديدين ، كان من نتاجهما أن أسلم الجاسوس العاشق الروح ، وهو يوصى فقط بأن يدفن إلى جوار معشوقته ..

ولكن الباريسيين رفضوا تنفيذ مطلبه الأخير هذا ، بعد أن أدركوا أنه لم يكن سوى جاسوس ألمانىٌّ ، شارك فى احتلال بلادهم وانهيارها ..

وهكذا لم يلتق (روميو) و (جوليت) .

فرقت بينهما الحرب ..

وفرق بينهما الموت ..

ولكن بقيت قصتهما كرواية فريدة لا مثيل لها ..

قصة الجاسوس (روميو) ، والعاشقة (جوليت) ..

أغرب قصة فى ذلك الكتاب الغامض ، وتلك الحرب الدائمة ..

حرب الجواسيس ..

* * *

حرب المعرفة

الصراع النووى

الجزء الأول

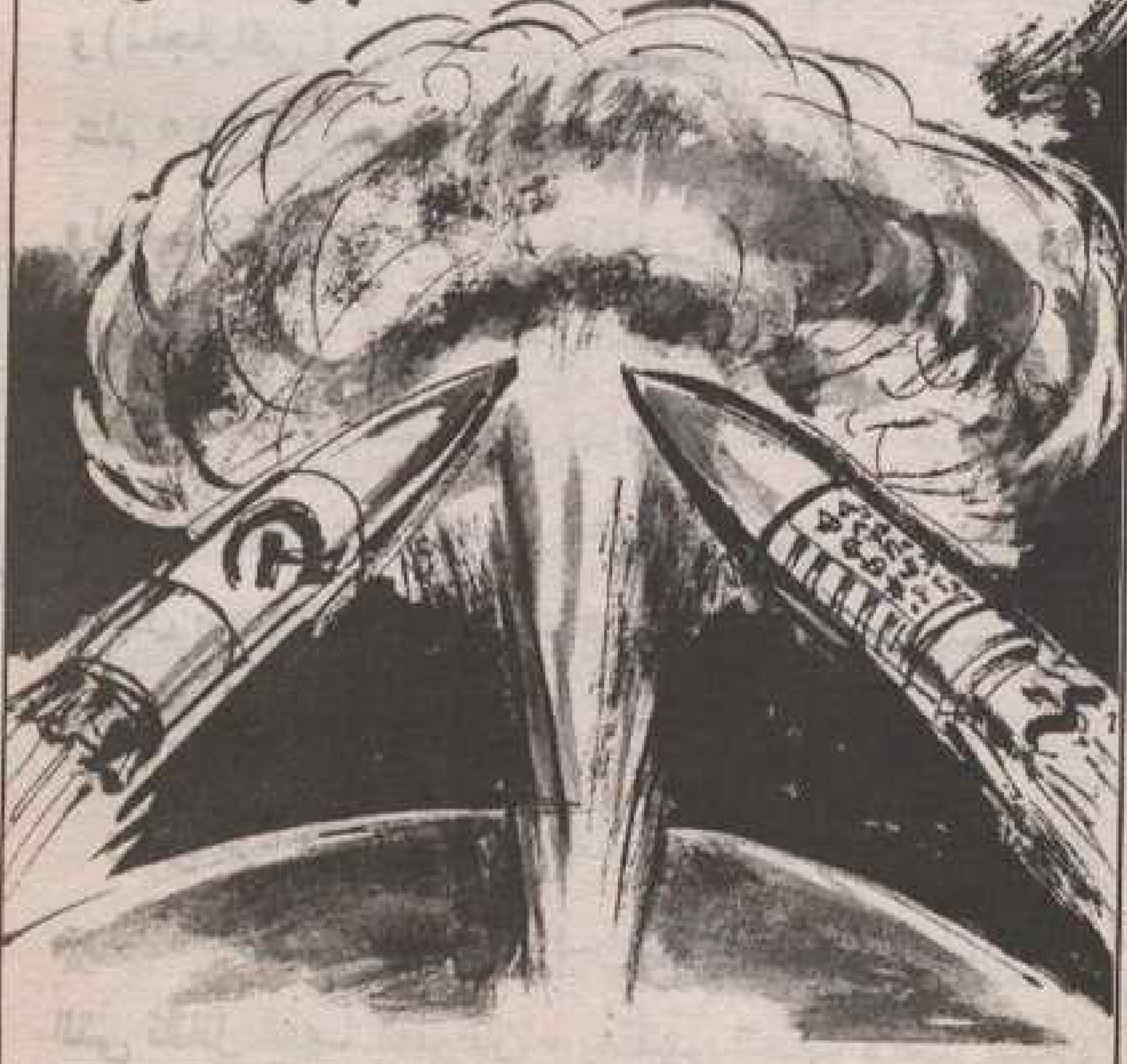

١ ـ التوازن الرهيب ..

إذا أردنا أن نتحدَّث عن تاريخ الصراع النووى فى العالم ، فإننا ـ وبخلاف ما سيتصوَّر أو يتوقَّع الكل ـ لن نبدأ بتفجير قنبلتى (هيروشيما) و(ناجازاكى) ، الذى بدأ فى السادس من أغسطس ، عام ١٩٤٥م ، ليحسم نتائج الحرب العالمية الثانية ، وليعيد تشكيل العالم من منظور جديد ، وإنما يعود بدء الصراع فى الواقع إلى ما قبل هذا بأعوام قليلة ، عندما راحت (أمريكا) و(ألمانيا) تسعيان ، بكل طاقتيهما وقوتيهما ، للفوز بالسبق النووى ، من خلال محاولتيهما لإنتاج أوَّل قنبلة نووية فى التاريخ ..

وفى ذروة الحرب العالمية الثانية ، كانت هناك حرب مخابراتية عنيفة ، من خلال إحدى العمليات ، التى تقاتل فيها الطرفان ، بمنتهى العنف والشراسة ،

للفوز بعينة من الماء الثقيل ، أو (أكسيد الديوتيريوم) ، الذى يحتوى على جزأين من الهيدروجين الثقيل ، وذرة من الأكسجين ، والذى يشبه الماء العادى ، فى خواصه الكيميائية ، ولكنه يختلف معه فى ثوابته الفيزيقية ، كنقطتى التجمُّد والغليان ، ودرجة حرارة الكثافة القصوى ، والذى يستخدم معدلاً ؛ لخفض سرعة النيوترونات ، فى التفاعلات النووية ..

ومن الواضح أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت الفائز ، فى عملية (الماء الثقيل) ، وفى نقطة بدء الصراع النووى الفعلى ، بدليل أنها أوَّل من فجَّر قنبلة نووية تجريبية فى التاريخ ، فى ١٦ يوليو ١٩٤٥م فى صحراء (نيو مكسيكو) .. ثم كان هناك صراع آخر ، قبل تفجير القنبلتين ..

صراع مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نفسه ..

فعلى الرغم من أن (هارى ترومان) ، الرئيس الثانى والثلاثين ، كان نائبًا للرئيس (فرانكلين روزفلت) ، إلا أنه ، وعند تسلّمه مقعد الرياسة ، بعد موت (روزفلت) ، عام ١٩٤٥م ، لم يكن يعلم شيئًا عن القنبلة الذرية ، التى نضجت واكتملت ، وأصبحت معدَّة للاستخدام ..

أو بمعنى أدق ، للتجربة ..

وعندما تم عرض الأمر عليه رسميًا ، كانت ألمانيا النازية قد احتضرت بالفعل ، واليابان تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ولم يكن استخدام قنبلة لها هذا التأثير الرهيب حتميًا ..

ولكن العسكريين كانت عندهم حجة جاهزة ..

لابد من تجربة القنبلة عمليًّا ..

ولابد أن يعلم العالم بوجودها وتأثيرها أيضًا ، وإلا فما فائدة أن تمتلك سلاحًا رهيبًا ، لا يعلم بوجوده أحد ؟!

وعلى الرغم من عدم اقتناعه بالفكرة ، وافق (ترومان) على إلقاء القنبلة الذرية على (هيروشيما) ..

وألقى الأمريكيون قنبلتهم ..

وارتجَّ العالم كله مع ماحدث ، وانخلعت قلوب اليابانيين ،

وراح محللوهم يضعون الفكرة تلو الأخرى ، فى محاولة لتفسير فناء مدينة كاملة ، بهذه السرعة ، وهذا العنف ..

فى البداية افترضوا قيام الأمريكيين بغارة ضخمة ، استخدموا فيها كل أسطولهم الجوى ، وألقوا خلالها كل مخزون قنابلهم دفعة واحدة ..

ثم عاد بعضهم يفترض أنهم قد ألقوا بودرة المغنسيوم على المدينة كلها ، ثم أشعلوه بقنبلة حارقة ..

وقبل أن تتوالى التفسيرات ، أعلن الأمريكيون للعالم أن سحق مدينة (هيروشيما) عن آخرها قد تم ، باستخدام قنبلة واحدة ..

قنبلة ذرية ..

واتسعت العيون فى وجل ، وهوت القلوب فى رعب ، وأولها قلوب حلفاء (أمريكا) أنفسهم ، الذين أدركوا

أن امتلاكها لسلاح رهيب كهذا ، يعنى أنها قد تسيَّدتهم جميعًا بضربة واحدة ..

أما (ترومان) نفسه ، فقد تصوَّر أن الهدف قد تحقَّق ، وأن قراره بإطلاق القنبلة على (هيروشيما) قد حقق مبتغاه ، وحسم الأمور ، ووضع (أمريكا) على قمة العالم بضربة واحدة ..

لذا فقد كانت دهشته عارمة ، عندما علم أن العسكريين ينوون إلقاء قنبلة ثانية على (ناجازاكى) ..

وفى هذه المرة أيضًا ، كانت لديهم حجة قوية ..

فالعلماء لم ينتجوا قنبلة واحدة ، بل قنبلتين ، إحداهما انشطارية والأخرى اندماجية ، ولابد من تجربة تأثير الحالتين ، وأنه ، ولهذا السبب بالذات ، تم اختيار (هيروشيما) و(ناجازاكى) ، لتقاربهما فى

المساحة وعدد السكان ، مما سيجعل المقارنة واضحة ..

وكما تم إقناع (ترومان) بإلقاء القنبلة الأولى ، نجح العسكريون فى دفعه إلى توقيع قرار إلقاء الثانية أيضًا ..

وبعد ثلاثة أيام من فناء (هيورشيما) ، ألقى الأمريكيون قنبلتهم الثانية على (ناجازاكى) .

وفنيت مدينة (يابانية) أخرى من الوجود ..

وارتفعت هامة (أمريكا) كدولة عظمى جديدة ، على جثث ملايين الضحايا ، الذين لقوا حتفهم مع الانفجار ، والذين راحت الإشعاعات والتأثيرات النووية تحصدهم ، على مر سنوات وسنوات تالية ..

ورفع اليابانيون الراية البيضاء ، الملطَّخة بالدماء ، إيذانًا بانتهاء تلك المرحلة من الصراع النووى ، وبدء مرحلة جديدة ..

المرحلة التنافسية ..

فمع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وعندما اجتمع قادة دول التحالف ، للاحتفال بانتصارهم الساحق ، بدا من الواضح أن الرئيس الأمريكى (ترومان) ، على الرغم من توتره السابق ، بشأن استخدام القنبلة الذرية ، قد بدأ يتعامل باعتباره القوة العظمى الأولى والوحيدة فى العالم ، فى حين بدا (ستالين) ، على الجانب الآخر ، ساخطًا محنقًا ، عاجزًا عن التظاهر بالسعادة والبساطة ، مع الهموم التى أثقلت كاهلة ، لثقته بأن نهاية الصراع العسكرى هى بداية لانفصام التحالف ، ولبدء الحرب البريطانية الأمريكية الباردة ، ضد الشيوعية ، المتمثلة الآن فى الاتحاد السوفيتى ، الذى اتسعت رقعته ، وتضاعف نفوذه ، وأصبح العدو رقم واحد .. لذا ، فقد بدأ (ستالين) الصراع الأوَّل ، منذ تلك اللحظة ، وفور عودته إلى (موسكو) ، أصدر أوامره إلى جهاز

المخابرات السوفيتى (KGB) للسعى بكل وسيلة ممكنة، للحصول على أسرار إنتاج القنبلة الذرية ..

وبأى ثمن ..

ومن الواضح أن جهاز المخابرات السوفيتى قد أدّى واجبه على أكمل وجه، فقد انتفخت أوداج (ستالين) فى زهو، فى عام ١٩٤٩م، وهو يعلن للعالم خبر تفجير أوّل قنبلة ذرية سوفيتية ..

وجنّ جنون الأمريكيين، الذين فوجئوا بأنهم، وبتفجير واحد، لم يعودوا القوة العظمى الوحيدة فى العالم، وتفجّرت فيهم موجة من الغضب العارم، امتزجت بخوف مذعور؛ لأن السلاح الذى فرضوا به هيمنتهم وغطرستهم على العالم، قد أصبح موجّهًا الآن إلى صدورهم ..

ولأوّل مرة، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تملّكت الأمريكيين حالة من الرعب، دفعتهم لبناء

المخابئ النووية، وإجراء تجارب مواجهة الغارات، والغازات والإشعاعات القاتلة ..

وفى الوقت ذاته، بدأت عملية بحث محمومة عن الشخص، الذى سرَّب أسرار القنبلة الذرية إلى السوفييت، باعتبار أن آخر المعلومات الواردة، كانت تؤكد استحالة نجاح الكتلة الشرقية فى إنتاج مثل هذه القنبلة، بمعلوماتهم الحالية ..

وكان النائب (ريتشارد نيكسون) هو أوّل من فجّر القضية، عندما أعلن أن لديه فيلمًا يثبت تسريب معلومات بالغة الخطورة، من وزارة الخارجية الأمريكية ..

ويشكك البعض فى أن ما أعلنه (نيكسون) كان فى حد ذاته مؤامرة، دبرها مع (ادجار هوفر)، رجل المخابرات الشهير، لبدء حملة هجوم عنيفة على الفكر الشيوعى، داخل الولايات المتحدة الأمريكية ..

تلك الحملة التى اشتهرت بأنها أسوأ فترات التاريخ الأمريكى ، والتى شبَّهها البعض بعصر محاكم التفتيش الإسبانية ، حيث كان اتهام شخص ما بالانتماء إلى الفكر الشيوعى ، يعنى تدميره اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا ، وإلقائه بلا رحمة إلى الذئاب الأمريكية الغاضبة ، لتنهشه بلا رحمة ، تحت قيادة (جوزيف ماكارثى) ، الذى اقترنت تلك الفترة السوداء باسمه ، حتى يومنا هذا ..

ومع اشتعال الموقف ، وارتفاع موجة الغضب ، أعلن الأمريكيون أنهم ، وبعد بحث مكثف ، وتحقيقات واسعة ، قد وضعوا أيديهم على الجاسوس ، الذى منح السوفيت أسرار القنبلة الذرية ، وقضى على التفوّق الأمريكى إلى الأبد ..

وحملت الصحف فى اليوم التالى ، صورة (يوليوس روزنبرج) ، وزوجته (إيثيل) ، مع مانشيت ضخم ، يتهمهما بالخيانة العظمى ..

وتمت محاكمة الزوجين (روزنبرج) ، على نحو لم تشهده الولايات المتحدة الأمريكية من قبل ، حيث احتشد الآلاف أمام قاعة المحاكمة ، لمتابعة ما يحدث أوَّلاً فأوَّلاً ، بل ولحظة فلحظة ..

ولقد أصرَّ الزوجان (روزنبرج) على رفض التهمة وإنكارها ، طوال فترة محاكمتهما ، التى شهدت العشرات من المهازل والتعنتات ، التى توحى بأن الحكم قد صدر بالفعل ، قبل أن تبدأ المحاكمة عمليًا ..

وعلى نحو لم يدهش أحدًا ، صدر الحكم بإعدام الزوجين (روزنبرج) ، بتهمة الخيانة العظمى ، وتم وصمهما بأنهما عدو الشعب رقم واحد ..

وتقدَّم محامى الزوجين بطلب لاستئناف الحكم ، وإعادة محاكمتهما ، فى جو أقل عدائية ، ولكن طلبه قوبل بالرفض التام ، وبالإصرار على تنفيذ حكم

الإعدام ، والذى تمّ بالفعل ، خلال أيام قليلة ، ليسدل الستار على هذه المرحلة ..

أو هكذا تصوّر الأمريكيون ..

فبعد شهرين فحسب ، من إعدام الزوجين (روزنبرج) ، فجّر الاتحاد السوفيتى أوّل قنبلة هيدروجينية ، ليفوز بهذه الجولة الجديدة من السباق ..

وهنا اشتعل نشاط الأمريكيين ، وراحوا يسعون لإنتاج وتطوير القنبلة الهيدروجينية ، فى نفس الوقت الذى أخذوا ينتشرون فيه ، فى كل المناطق التى يمكنهم الوصول إليها ، حول حدود الاتحاد السوفيتى ..

ولقد أقلق هذا (ستالين) بشدة ، فالمشلكة لم تعد فى امتلاك القنابل الذرية والنووية ، التى أصبح الطرفان

يحوزانها على قدم المساواة ، وإنما صارت المشكلة الأولى هى قدرة كل طرف على توجيه ضرباته إلى الطرف الآخر ..

ومن هنا بدأ سباق جديد

سباق الصواريخ ..

فالحل كان يكمن فعليًا فى إنتاج الصواريخ بعيدة المدى ، وعابرة القارات ، التى يمكن تحميلها

بالرءوس النووية ، وتوجيهها إلى الخصم ، فى أى مكان فى العالم كله ..

وتحوّل الأمر إلى سباق محموم ، اعتمدت فيه (أمريكا) على خبير الصواريخ الألمانى النازى السابق (فون براون) ، الذى حصل على الجنسية الأمريكية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، فى حين اعتمد السوفيت على طاقم من العلماء الألمان أيضًا ، والذين تم أسرهم بعد سقوط النازية ، وكأنما ورث الطرفان ثمرة التفوق التقنى العسكرى الألمانى ، ليتقاتلا به فيما بينهما ؟!

ولأن المصادر واحدة ، فقد نجح الفريقان فى الفوز بالسباق ، فى آن واحد تقريبًا ، على نحو أحدث نوعًا من التوازن العالمى ، ارتاح له الآخرون ، باعتبار أن وجود قوتين عظميين يجعل المواجهة العسكرية شبه مستحيلة تقريبًا ..

ثم ذهب (ستالين) ، وجاء (نكيتا خروشوف) ، ليفاجئ العالم كله من (نيويورك) ، فى أثناء انعقاد الدورة الرابعة عشرة للجمعية العمومية للأمم المتحدة ، وهو يطرح مصطلحًا جديدًا على الساحة لأوّل مرة ، فى عام ١٩٥٩ م ..

مصطلح (نزع السلاح) ..

فلقد اقترح (خروشوف) أن تقوم الدول العظمى بالتوقف عن سباق التسلح النووى وغير النووى ، بحيث يتم تخفيض الجيوش ، وخفض ميزانية التسلُّح ، وإنقاص أعداد المقاتلين ، وسفن الأساطيل ، ومقاتلات الجو ، والدبابات ، والمشاة ، وتوجيه الاهتمام والنقود إلى تطوير وتحسين الأحوال المعيشية للشعوب ، بدلاً من إنفاقها على ابتكار وسائل هدمها وسحقها ..

وعلى الرغم من أن العالم كله قد صفق فى حماسة

للفكرة ، إلا أنها كانت حالمة ورومانسية أكثر مما ينبغى ، خاصة وأنه لم يكن هناك طرف قادر على أن يمنح ثقته للطرف الآخر ، لاكلها ، ولانصفها ، ولاحتى أصغر جزء منها .. ولكن الأمريكيين وافقوا على عقد مؤتمر مشترك مع السوفيت ، لمناقشة فكرة الحد من التسلُح هذه ، واستقبل السوفيت قرارهم هذا بمبادرة إيجابية ، تم عبرها خفض جيشه بمقدار الثلث ..

وفى أوَل مايو التالى ، وبينما يحتفل الاتحاد السوفيتى بعيد عماله ، ويستعد العالم كله للمؤتمر التاريخى ، وقع حادث مؤسف للغاية ..

أوَل صاروخ دفاعى سوفيتى ، أسقط طائرة تجسُس أمريكية ، تحلق فوق أراضيه ، ويقودها الأمريكى (فرانسيس باور) ، الذى تحوَل إلى رمز للغدر والخيانة ..

وحوكم (باور) ، واعترف فى محاكمته بأنه قد ارتكب جريمة فى حق الشعب السوفيتى ، ومن الواضح أن

الأمريكى قد تعرَّض لضغوط هائلة ، لتقديم مثل هذا الاعتراف ، الذى اقترن باعتذار ذليل ، وبمناشدة قضاته السوفيت أن يتعاملوا باعتبار أنه لا يكن عداءً شخصيًّا لشعبهم ..

وصدر الحكم ضد (باور) بالسجن لخمسة عشر عامًا ، ثم لم يلبث الأمريكيون أن استبدلوه بجاسوس سوفيتى مهم ، ليعود (باور) إلى وطنه ، بعد أقلَ من ثلاث سنوات ..

ولكن ماحدث نسف مؤتمر الحد من التسلُح نسفًا ، قبل حتى أن ينعقد ..

ومرَت السنوات ، والطرفان يواصلان سباقهما الملتهب ، والعالم كله يتساءل : من الرابح فى النهاية ؟!

لو أنه هناك رابح !

ثم جاء (جون فيتزجيرالد كيندى) ، ليواجه الأمور

على نحو مختلف ، وليحظى بشعبية غير مسبوقة ، وبانبهار من الشعب الأمريكى ، كان يكفيه ليحقق انجازات غير مسبوقة ، فى تاريخ (أمريكا) والعالم ، لولا مافعله بغتة ، عندما بدأ يهاجم النظام الجديد فى (كوبا) ، بمنتهى العنف والصرامة ، ويعد بعودة النظام القديم ..

وكان أوَّل تدخل سافر من (أمريكا) ، فى النظم السياسية الخارجية ..

ولقد رفضت (كوبا) هذا التدخُّل بمنتهى العنف ، ثم لجأت إلى أصدقائها السوفيت ؛ لحمايتها من الخطر الأمريكى القادم ..

وكانت فرصة نادرة للسوفيت ، للاقتراب من الحدود الأمريكية ؛ لذا فقد لبوا النداء الكوبى على الفور ، وسرعان ما انتشرت صواريخهم بعيدة المدى ، على الشواطئ الكوبية ، مما أثار غضب الأمريكيين بشدَة ..

وحبس العالم كله أنفاسه ..

فها هى ذى المواجهة المخيفة تحدث أخيرًا ، على نحو لم يتوقَّعه أحد ..

وشهد خريف عام ١٩٦٢م حالة ترقُّب مذعور عالمية ، والكل يتوقَّع أوَّل مواجهة نووية مباشرة ، بين القوتين العظميين ..

ولكن الموقف كان يضع قاعدة عالمية جديدة ..

مادام هناك توازن قوى ، فالمواجهات المباشرة مستبعدة ..

بل مستحيلة ..

وباتصال تليفونى مباشر ، بين (واشنطن) و(موسكو) ، تراجع الأمريكيون عن موقفهم ، تجاه النظام الكوبى الجديد ، ووعدوا باحترامه ، وبعدم التدخُّل فى شئونه ، فى حين وعد السوفيت

بـالتراجع ، وعدم نشر صواريخهـم النوويـة ، فـى مواجهة السواحل الأمريكية ..

وعاد الأسطول السوفيتى إلى وطنـه ، ليضع نهايـة للمرحلـة الأولـى ، مـن الصـراع النـووى العـالمى ، ولتبدأ مرحلة جديدة ..

مرحلة مد السيطرة النووية .. عالميًّا ..

* * *

(تابع الجزء الثانى ، فى الكتاب القادم .. بإذن الله)

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسة غير تقليدية ..

إنها أولّ سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أولّ سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء اللّه (العلى القدير)

د. نبيل فاروق

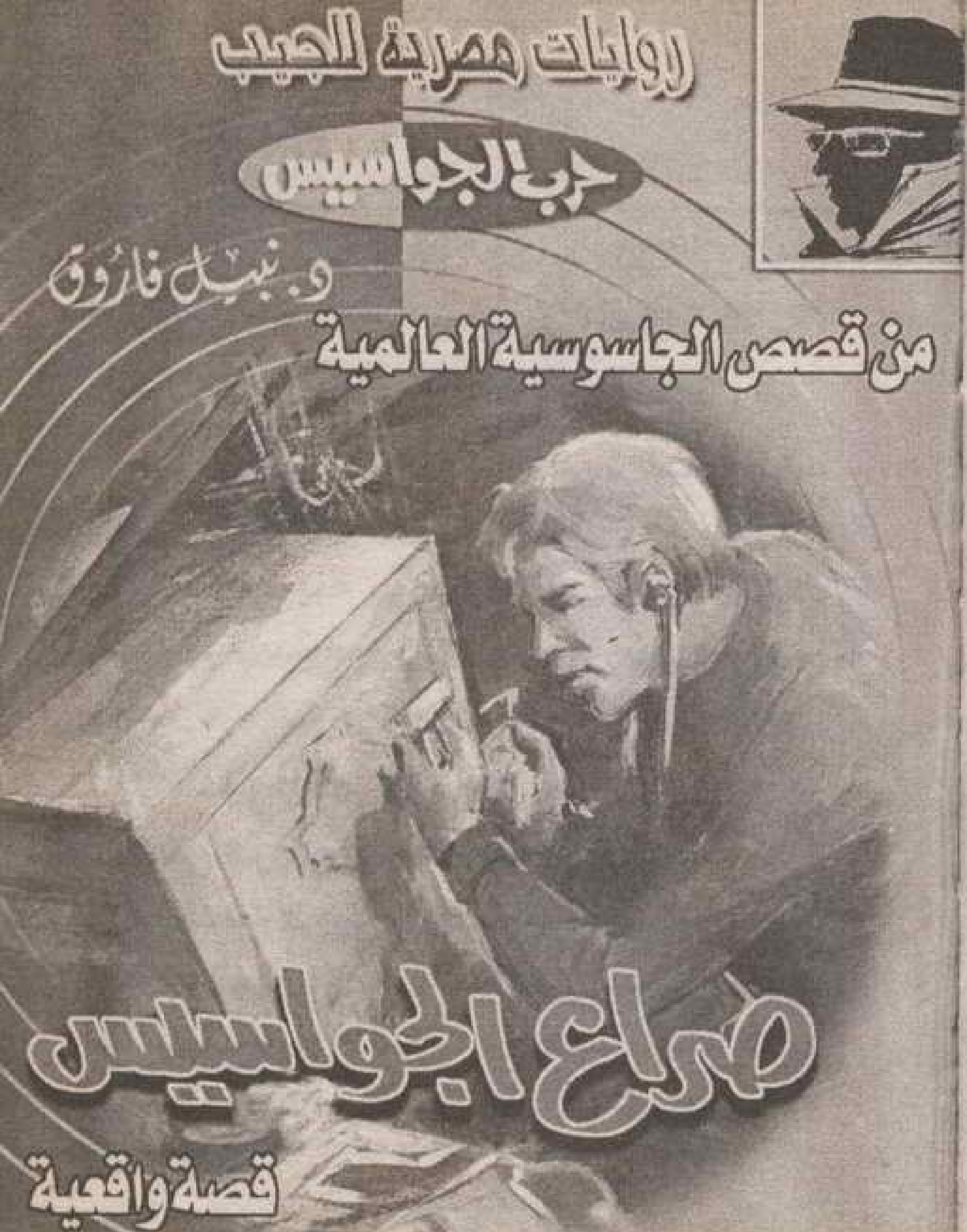

١ـ الجندى ..

● أخيرًا ، وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، فى (أوروبا) على الأقل ، بعد انتحار (ألمانيا) النازية ، وانهيار الرايخ الثالث ، وانتحار (أدولف هتلر) ..

وكما تنقضّ الذئاب الجائعة على فريسة ، طالت مطاردتها لها ، برزت أنياب الحلفاء ، وهم ينهشون (ألمانيا) الجريحة ، وراحوا يقسمونها فيما بينهم ، باعتبارها غنيمة حرب ، وفقًا لاتفاق مسبّق ، منح نصفها للسوفيت ، والنصف الآخر لباقى الحلفاء ، (أمريكا) و(إنجلترا) و(فرنسا) ..

والتقى الفريقان فى منتصف (برلين) ، وبجرّة قلم ، انقسمت المدينة الألمانية العريقة ، التى شهدت صعود وانهيار الرايخ الثالث ، إلى قسمين ، اختلفا فيما بينهما تمام الاختلاف ، فأحدهما غربى الاسم والطابع ، والآخر سوفيتى شرقى ، يرتفع فوقه العلم الأحمر ..

ومنذ تلك اللحظة ، وقبل حتى أن تحسم (أمريكا) حربها مع (اليابان) ، بقنبلتيها الذريتين الشهيرتين ، بدأت حرب جديدة أكثر شراسة ، بين الكتلتين اللتين أفرزتهما الحرب ، بسنواتها الست البغيضة ، مع ما تغيَّر من أمور كبيرة ، فى عالمنا وتاريخنا المعاصر ..

ولقد تمثَّلت تلك الحرب ، أوّل ما تمثَّلت ، فى سباق الفوز بالخبراء ..

فعلى الرغم من العداء المستحكم الطويل ، بين الجانبين والقيادة النازية ، كان الأمريكيون والسوفيت معًا يدركون جيِّدًا ، أن (ألمانيا) تمتلك جيشًا آخر ، يفوق جيشها العسكرى المقاتل ألف مرة ..

جيش من العلماء ، والمفكرين ، والمخترعين ، والمبتكرين ، ثم ـ وهذا هو الأكثر أهمية وخطورة ـ فريق نادر للغاية ، فى عالم الجاسوسية والمخابرات ..

وكان السباق العنيف ، الذى بدأت به الحرب بين الأمريكيين والسوفيت ، هو ذلك الذى اشتعل ، فور

سقوط (ألمانيا) ، للفوز بأكبر عدد ممكن من هذه الخبرات ..

وبالذات رجال المخابرات الألمانية السابقين ..

ولا أحد يمكنه أن يدّعى أن أحد الفريقين قد ربح هذه المعركة باكتساح ..

فلقد انتهت الحرب بالتعادل ، لو صحّ القول ..

وانقسم رجال المخابرات النازية بين الفريقين ، تمامًا مثلما حدث مع العلماء ، والمخترعين ، وغيرهم ..

وفى لهفة عجيبة ، ونهم بلا حدود ، راح كل فريق ينهل ممن فاز بهم ، إلى أقصى حد ممكن ..

والحق يقال ، إن العقول الألمانية كانت مدهشة ومتفوّقة وخبيرة بحق ، فقد أدى وجودهم إلى حدوث تطويرات ضخمة ، فى الجانب السوفيتى ، وبالذات فى مجال الحرب النفسية وحرب المخابرات ..

وعلى الجانب الأمريكى ، كان لهؤلاء الخبراء فائدة أضخم ، إذ إنهم كانوا النواة الأولى لتكوين جهاز المخابرات المركزية الأمريكية ، الذى نال فيما بعد شهرة عالمية واسعة ؛ باعتباره أفضل وأقوى جهاز مخابرات فى العالم ..

وبعد استخدام (أمريكا) لقنبلتيها الذريتين ، اتسعت عيون العالم كله ، فى ذهول مذعور ، والكل لا يصدّق أنه هناك سلاح ، يمكنه أن يحدث هذا القدر الهائل من التدمير والخراب والقتل ..

وانتفخت أوداج (أمريكا) زهوًا وغطرسة ..

وانعقدت حواجب السوفيت غضبًا وسخطًا ..

واشتعلت الحرب الصامتة بين الفريقين أكثر وأكثر ، وحملت إعلاميًا اسم الحرب الباردة ، وأصبح الشغل الشاغل لكل فريق هو تنمية قدراته العسكرية ، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ، عن الفريق الآخر ، فى الوقت ذاته ..

ثم بدأت ، على الجانبين ، عملية اصطياد الهاربين والمختفين ، من ضباط وجنرالات الجيش النازى ؛ لمحاكمتهم كمجرمى حرب ، والاستفادة مما لديهم من معلومات ، لو أنهم كانوا يحتلون مناصب مهمة ، خلال فترة الحرب ..

وفى نفس الوقت ، الذى يتمّ فيه إعمار (برلين) ، كان النازيون السابقون يتساقطون كالذباب ، وتملأ أخبار سقوطهم الصحف الغربية والشرقية على السواء ..

فيما عدا واحدًا ، لم تذكر الصحف حرفًا واحدًا عنه ..

(رودلف ميلر) ..

و(رودلف) هذا لم يكن جنرالاً من جنرالات الجيش النازى ، أو حتى واحدًا من ضباطه الكبار ، وإنما كان مجرَّد جندى ..

جندى إشارة ..

و(رودلف) لم يسقط فى قبضة المخابرات الأمريكية بخطة محكمة ، وإنما فرَّ إليها ، من (برلين) الشرقية ،

وألقى نفسه فى قبضتها ، فرارًا من القبضة الحديدية الدموية ، للحكم السوفيتى الرهيب ..

ولأنه وقع فى قبضة شرطة الحدود ، على الجانب الغربى ، وتولاه رعب هائل ، من إمكانية إعادته إلى السوفيت ، وما يستتبعه هذا من استجوابات ، وتحقيقات ، وتعذيب ، وموت بشع فى النهاية ، فقد راح ذهنه الملتهب يبحث عن أية وسيلة ، للفرار من مصيره الأسود ، ثم وجد نفسه يهتف فجأة :

ـ كنت جنديًا للإشارة ، فى الجيش النازى .

لم يبال رجال شرطة الحدود لحظة واحدة بعبارته هذه ، وواصلوا عملهم ، لملء كل الاستمارات والأوراق ، اللازمة لإعادته إلى الجانب الشرقى ، أو تقديمه للمحاكمة ، فى الجانب الغربى ..

وامتقع وجه (رودلف) المسكين ، وراح جسده النحيل يرتجف فى ارتياع ، بعد أن تجاهل الكل تصريحه ، الذى تصوَّر أنه كفيل بتفجير الموقف كله ..

وفى محاولة يائسة أخيرة ، أضاف :

ـ إننى أعرف أين أخفوا ملفات الشفرة السرية .

لم يكد ينطقها ، حتى خُيِّل إليه أن قنبلة قد انفجرت بغتة فى المكان ..

قنبلة من الصمت ..

ففجأة ، ومع آخر حروف عبارته ، هوى على المكان كله صمت رهيب ، واستدارت إليه العيون كلها فى دهشة ، سُرعان ما تحولّت إلى شىء من الاستنكار وعدم التصديق ، قبل أن يغمغم أحد رجال الشرطة :

ـ أعتقد أن هذا يستلزم إبلاغ جهة عليا .

لم تمض ساعة واحدة ، على قوله هذا ، حتى وصلت إلى المكان سيارة سوداء كبيرة ، هبط منها رجل طويل القامة ، متين البنيان ، أسود الشعر ، أزرق العينين ، وخلفه رجلان قويان ، بدا من هيئتهما ، وأسلوب سيرهما خلفه ، أنهما تابعان ، أو حارسان خاصان ..

وبنظرة صارمة ، تطلّع إليه ذلك الرجل ، قبل أن ينخرط فى الحديث بعض الوقت ، مع رجال شرطة الحدود ، بصوت لم يسمعه (رودلف) ، الذى راح عقله يطرح ألف وألف سؤال ، حول هوية ذلك القادم وهدفه ..

ثم أدار الرجل عينيه الزرقاوين إليه مرة أخرى ، واتجه نحوه مباشرة ، ووقف على قيد خطوات قليلة منه ، يتطلّع إليه فى صمت ، قبل أن يقول بغتة ، بلغة ألمانية سليمة :

ـ ماذا كان عملك ، فى الجيش النازى ؟

ازدرد (رودلف) لعابه فى صعوبة ، ليتمتم :

ـ جندى اتصال وإشارة .

سأله الرجل ، بلهجة صارمة جافة :

ـ أين ؟!

أجابه (رودلف) بسرعة هذه المرة :

ـ فى مقر قيادة (الجستابو) .

هذا الجواب وحده أشعل الدنيا بحق ، فما إن سمعه الرجل ، حتى اعتدل بحركة حادة ، والتقى حاجباه فى شدة ، وهو يتطلَّع إلى (رودلف) بنظرة طويلة قاسية ، قبل أن يشير إلى حارسيه ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ سنصطحبه معنا .

لم يدر (رودلف) ماذا حدث بالضبط ، ولكنه شعر بذراعين قويتين تقبضان عليه ، وتنتزعانه من مقعده ، وتدفعانه نحو السيارة السوداء الكبيرة ، وسمع ذا العينين الزرقاوين من خلفه ، يقول لرجال شرطة الحدود فى صرامة :

ـ كل ما يتعلَّق بأمره يتم محوه من السجلات فورًا .. إنكم لم تروه أبدًا .. هذا أمر يتعلَّق بالأمن القومى .

وسقط قلب الألمانى الشاب بين قدميه ، عندما سمع العبارة ، وعندما انحشر بين الحارسين الضخمين فى المقعد الخلفى ، ورئيسهما يجلس إلى جوار السائق ، لتنطلق بهم السيارة على الفور ..

وتضاعف ذعره وخوفه ، عندما أحاط أحد الحارسين عينيه بعصابة سوداء ، وهمس فى أذنه بخشونة :

ـ لا تفتح فمك بكلمة واحدة .

وطوال ما يقرب من نصف الساعة ، انطلقت السيارة فى قلب (برلين) الغربية ، ثم توقَّفت ، وجذبه الحارسان خارجها فى شىء من القسوة ، ودفعاه أمامهما لعدة أمتار ، قبل أن يرفع أحدهما العصابة عن عينيه ..

وللوهلة الأولى ، أغلق (رودلف) عينيه فى قوة ،

مع الضوء الساطع فى المكان ، ثم لم يلبث أن فتحهما فى حذر ، ولكنهما اتسعتا بغتة عن آخرهما ، على الرغم منه ..

فما رآه أمامه كان مدهشًا ..

وبكل المقاييس .

★ ★ ★

٢ ـ أخطر الملفات ..

● لدقيقة كاملة ، لم يصدّق (رودلف ميلر) ، جندى الإشارة السابق فى الجيش النازى ، ما يراه أمامه ، فى تلك القاعة الواسعة ، التى تم نقله إليها معصوب العينين ..

فعلى الرغم من أن الحرب قد انتهت فعليًا ، منذ ما يزيد على العامين ، إلا أن القاعة ، التى يقف فيها ، كانت نسخة طبق الأصل ، من قاعة الاتصالات ، التى عمل فيها لثلاثة أعوام كاملة ، فى قبو مقر (الجستابو) الرئيسى فى (برلين) ..

ولدقيقة أخرى ، راح الشاب يدير عينيه فى المكان ، بكل ما يعتمل فى أعماقه من انفعال ، قبل أن يسأله أزرق العينين ، فى هدوء مشوب بالصرامة :

ـ أين كنت تعمل ؟!

أشار (رودلف) إلى منضدة فى الركن ، استقرَّ عليها جهاز اتصال ألمانى قديم ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ هنا .

تبادل الرجال فى الحجرة نظرة صامتة ، قبل أن يلتقط أحدهم ملفًا كبيرًا ، قلَّب أوراقه فى سرعة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ (رودلف هانزميلر) .. مواليد يناير ١٩٢١م ، مزارع من ضواحى (هامبورج) ..

واصل الرجل تلاوته للبيانات الدقيقة ، المسجَّلة فى الملف ، عن (رودلف) وحياته كلها ، وتفاصيل عمله فى قاعة الاتصالات ، فى مقر (الجستابو) ، والشاب يحدِّق فيه بكل ذهول وانبهار ، قبل أن ينهى الرجل حديثه ، دون خطأ واحد ، ثم يلتفت إلى أزرق العينين ، قائلاً :

ـ مجرَّد جندى اتصالات عادى .

مطَّ أزرق العينين شفتيه ، وألقى نظرة على (رودلف) ، قائلا :

ـ فقط ؟! كنت أظنه أكثر أهمية .

لم يدرك الألمانى الشاب ، فى تلك اللحظة ، أن كل ما يحدث من حوله ، كان أحد أساليب الحرب النفسية ، التى ابتكرها الألمان ، إبان الحرب العالمية الثانية ، والذى علمه خبراؤهم للأمريكيين ، منذ أعوام قليلة ، وأن الهدف منه هو إبهاره ، وكسر مقاومته ، ودفعه إلى الاعتقاد بأن كل ما قاله ، وما يمكن أن يقوله ، مسجَّل بالفعل ، فى تلك الملفات ، التى استعرضها الأمريكى الآخر أمامه ..

لم يدرك هذا ، وهو يقول بحلق جاف ، وصوت مرتجف :

ـ لست جنديًّا عاديًّا ؛ فما أعرفه مهم وخطير ، ولا يعرفه سواى .

وبصعوبة بالغة ، ازدرد لعابه ، عبر حلقه الجاف ، قبل أن يضيف بصوت خشن مبحوح :

ـ ممن بقوا على قيد الحياة .

تبادل الرجال نظرة صامتة قبل أن يسأله أزرق العينين ، فى هدوء شديد الحذر ، وهو يتفرَّس فى ملامحه جيدًا :

ـ وما الذى تعرفه بالضبط ؟!

ازدرد (رودلف) لعابه مرة أخرى ، فى صعوبة أكثر ، وأدار عينيه فى وجوههم جميعًا ، قبل أن يستجمع شجاعته ، ويجيب :

ـ أعرف أين أخفوا ملفات الشفرة .. كلها .

تبادل الرجال نظرة أخرى ، قبل أن يسأله أزرق العينين ، فى شىء من الصرامة :

ـ ملفات شفرة الاتصالات الألمانية ؟!

صمت (رودلف) بضع لحظات هذه المرة ، قبل

أن يجيب فى اندفاع ، وكأنما يخشى ألا يُحدث جوابه التأثير المطلوب :

ـ بل السوفيتية .

لم يكد الجواب يتجاوز شفتيه ، حتى خُيِّل إليه أن قنبلة أخرى قد تفجَّرت ، فى القاعة كلها ..

قنبلة من الدهشة واللهفة والاهتمام هذه المرة ..

قنبلة ظهرت آثارها القوية فى العينين الزرقاوين ، اللتين التهبتا ببريق رهيب ، يوحى بأن الأمور ستتطوَّر حتمًا ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

من المؤكَّد أن ما أدلى به جندى الجيش النازى السابق ، كانت له أهمية كبرى ، بالنسبة لجهاز المخابرات الأمريكى الوليد ، فما إن أبرق مسئول مكتب (برلين) بالأمر إلى (واشنطن) ، حتى تم عقد اجتماع علجل ، فى المقر المؤقَّت للجهاز ، حضره أوَّل مدير رسمى له ، حيث تم بحث الأمر كله ، ومناقشته لأكثر من ست ساعات متصلة ؛ لتحديد مدى صدق الألمانى ، وخطورة ما أشار إليه ..

فالقصة التى ذكرها كانت منطقية إلى حد كبير ..

وتتوافق مع ما تم جمعه من معلومات سابقة بالفعل ..

إنه يقول : إن (هملر) ، قائد (الجستابو) ، قد جمع كل الملفات السرية ، الخاصة بشفرة الاتصالات السوفيتية ، والتى تم رصدها وتحليلها ، وفكّ ألغازها ونظمها المعقّدة ، خلال خمس سنوات كاملة ، وقرّر حرقها كلها ، والتخلّص منها نهائيًا ، قبل أن تسقط (برلين) فى قبضة الحلفاء ..

ولكن (ألمانيا) لم تكن قد انهزمت تمامًا بعد .. والفوهلر كان بطبعه يرفض فكرة الهزيمة ، ويصرّ على أنه مازال هناك احتمال للنصر ، بمعجزة من آلهة الحرب الأسطورية ، أو بسلاحه السرى ، الذى لم يكشف عنه قط ..

لذا ، فقد تقرّر عدم حرق الملفات ..

وكان البديل الوحيد أمام (هملر) ، هو إخفاء تلك الملفات الشفرية السوفيتية السرية الخطيرة ، فى مكان خفى ، لا يمكن التوصل إليه قط ..

ولأن عملاً كهذا يحتاج إلى سرية تامة ، فقد انتقى (هملر) اثنين من أفضل ضباطه ، وأكثرهم تفانيًا وإخلاصًا ، مع اثنين من جنود قسم الاتصالات والإشارة ، ممن يحوزون منتهى الثقة ، وحمل الكل صناديق الملفات ، إلى مخبأ خاص ، وسرى ..

سرى للغاية ..

ثم تطوّرت الحرب بسرعة ، ولقى الضابطان والجندى الآخر حتفهما ، فى اقتحام مقر (الجستابو) ، وانتحر القادة فى مخبئهم السرى ..

ولم يتبق على قيد الحياة سوى (رودلف ميلر) وحده ..

وأصبح الوحيد الذى يعرف أين يختفى ذلك الكنز الحربى الخطير ..

والواقع أن الحلفاء ، والسوفيت أيضًا ، قد بذلوا جهدًا خرافيًا ، فور سقوط (ألمانيا) النازية ، للعثور على تلك الملفات ، التى تحوى كل أسرار الشفرات السوفيتية ، وكل النتائج التى استخلصها الخبراء الألمان ، من دراستها وفحصها وتحليلها ..

فعلى الرغم من أن الحرب قد وضعت أوزارها بالفعل ، ومن أن الشفرة يتمّ تغييرها دوريًا ، وحتمًا بعد نهايات الحروب ، إلا أن ما فعله الألمان كان يكشف نمط التفكير التشفيرى السوفيتى ، وأسلوبهم فى التعامل مع الاتصالات السرية ، وهو أمر يكفى لكشف معظم محاولاتهم المستقبلية ، على نحو يعرّضهم لخطر جسيم ، فى الحرب الباردة القادمة ..

والفريقان يدركان هذا جيّدًا ..

ويسعيان للفوز بتلك الغنيمة ، منذ سقوط (ألمانيا) ..

الأمريكيون لكشف أسرار نظم الاتصالات والتشفير السوفيتية ..

والسوفيت للحفاظ على أسرارهم ، ومنع خصومهم من الفوز بها ..

ولكن كل محاولات الفريقين لم تسفر عن أية نتائج ، طوال الأعوام الماضية ، على الرغم من الجهود المضنية ، والاستجوابات العنيفة ، وتعذيب وقتل العشرات من ضباط الجيش النازى السابقين ، فى غرف التحقيقات ..

لذا فقد كان ما أعلنه (رودلف) مثيرًا ومهمًا إلى أقصى حد ، مما دفع الأمريكيين إلى إحاطته بكل الرعاية السرية ، واستجوابه بقدر هائل من الحزم والصرامة .. والرفق أيضًا ، ولكن الجندى النحيل رفض بإصرار الإفصاح عن مخبأ الملفات السرية للشفرة السوفيتية ، قبل أن يحصل على موافقة صريحة ، ببقائه فى (ألمانيا) الغربية ، وعدم عودته نهائيًا إلى (ألمانيا) الشرقية ..

ولأن الأمر لايحتمل المحاورة والمناورة طويلاً ، فقد تحرّكت السلطات الأمريكية بسرعة ودون إبطاء ، ولم تمنح (رودلف ميلر) موافقة فحسب ، وإنما منحته أيضًا جواز سفر رسميًا ، ينسبه إلى الجانب الغربى ..

وكانت فرحة الألمانى الشاب عارمة ، حتى إنه لم يكد يحصل على الجواز ، حتى أبلغهم بموقع البناية ، التى تم إخفاء الملفات السرية فى خزانة سرية مدفونة فى قبوها ..

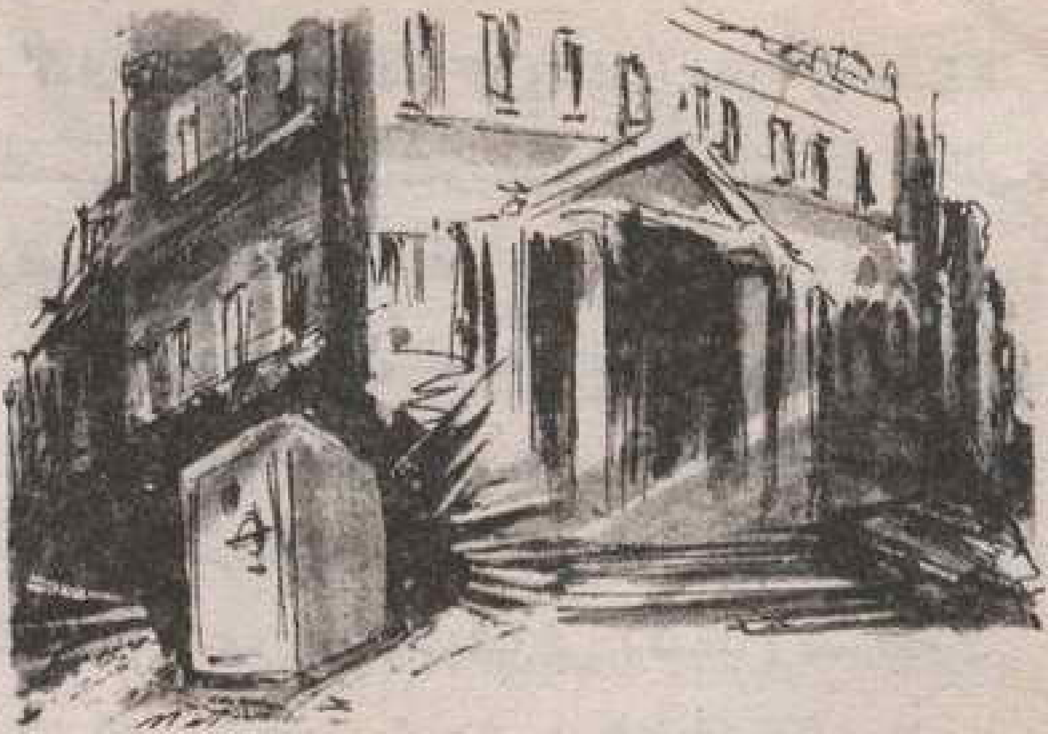

ودون إضاعة لحظة واحدة ، أسرع الكل إلى خريطة (ألمانيا) ، بحثًا عن تلك البناية ، و ....

وجاءت الصدمة عنيفة للغاية ..

فالقبو ، الذى أخفيت فيه خزانة الملفات السرية ، كان يكمن أسفل بناية حكومية ألمانية عريقة ، ولكن ..

فى الجانب الآخر ..

الجانب السوفيتى .

* * *

٣ ـ الجانب الآخر ..

● « والآن ماذا نفعل ؟! »

ألقى مدير المخابرات الأمريكية السؤال ، وهو يتطلّع إلى خريطة (ألمانيا) ، التى حملت دائرة حمراء تشير إلى موقع المبنى الحكومى ، الذى أخفيت أسفله خزانة ملفات الشفرة السرية السوفيتية ، قبل أن يتابع فى اهتمام متوتر :

ـ الأمور بيننا وبين السوفيت متوترة للغاية ، فى هذه الأيام ، وهم يراقبون كل تحركاتنا بمنتهى الدقة والتحفُّز ، وعبور أى من رجالنا إلى الجانب الشرقى ، أمر محفوف بكافة المخاطر ، فما بالكم بالوصول إلى مبنى حكومى ، واقتحام قبوه ، وحفره ، للحصول على تلك الملفات من أعماقه ؟!

أشار مساعده الكولونيل (هارولد) بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

- هناك أيضًا مشكلة فتح الخزانة ، التى يؤكِّد ذلك الجندى أنها من طراز حديث ، ومزوَّدة برتاج خاص .

تنهَّد مدير المخابرات ، قائلاً :

- هذا يزيد الأمر تعقيدًا .

انبرى أحد رجال المخابرات ، يقول فى حزم :

- الأمر يحتاج إلى فريق خاص ، يضمّ اثنين من رجالنا ، وخبير خزائن ، و ...

قاطعه الكولونيل (هارولد) مستنكرًا :

- أية فكرة حمقاء هذه ؟! إرسال فريق كامل يكفى ، ليس لجذب انتباه السوفيت فحسب ، ولكن لإشعال الموقف كله ، على نحو سنفقد فيه حتمًا السيطرة على كل الأمور .

أدار مدير المخابرات عينيه إليه بنظرة صارمة ؛ بسبب أسلوبه الفظ ، فتنحنح مستطردًا :

- ثم إن المخابرات السوفيتية أكثر عراقة منا ،

ورجالها أكثر حنكة وخبرة ، ولست أستبعد وجود جواسيس لهم فى صفوفنا ، وربما ملفات كاملة عنا أيضًا ..

ثم لوَّح بيده فى حدة ، متابعًا :

- ولن أستبعد كونهم يعرفون رجالنا ، ويحفظون وجوههم عن ظهر قلب ..

هتف به مدير المخابرات فى غضب :

- إنك تهوِّن من شأننا ، وتعلى من قدرهم يا (هارولد) .

أجابه (هارولد) فى حزم :

- فى عملنا ، هذا أفضل من التهوين من شأنهم ، والإعلاء من قدرنا ، ونحن نزعم خوض حرب جواسيس فى أرضهم .

انعقد حاجبا المدير فى عصبية ، فى حين قال رجل المخابرات (ادجرتون) ، فى رصانة اشتهر بها بين أقرانه :

- أعتقد أن الكولونيل (هارولد) على حق يا سيِّدى ،

فنحن جهاز مخابرات وليد ، ومازلنا ننهل من خبرات الألمان ، الذين يضعون الدعامة الأساسية لنا ، وفى عملية كهذه ، ينبغى أن نتخذ كل الاحتياطات ، على نحو لم يسبق له مثيل .

استدارت العيون كلها إليه ، وسأله (هارولد) فى اهتمام :

ـ ألديك اقتراح ما يا (ادجرتون) ؟!

صمت (ادجرتون) بضع لحظات ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ بل .. لدى مرشَّح للمهمة .. مرشَّح مناسب تمامًا .

منحه الكل آذانهم واهتمامهم ، وهو يحدثهم عن مرشحه ..

ولكن المفاجأة كانت قوية وعنيفة ..

إلى أقصى حد ..

* * *

ارتسمت دهشة عارمة على وجه (ستيف جوست) ، أشهر لص خزائن ، فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها ، عندما التقى برجل المخابرات (ادجرتون) ، فى حجرة خاصة ، فى سجن (نيويورك) ، وقدَّم له هذا الأخير نفسه ، بصفته الفعلية ، فحدجه (ستيف) بنظرة حذرة ، قبل أن يقول بضحكة عصبية :

ـ وما شأن المخابرات الأمريكية بى ؟! صحيح أننى هنا بتهمة سرقة خزانة البنك الفيدرالى ، ولكن هذه مجرَّد جريمة سرقة ، وليست خيانة عظمى .. أليس كذلك ؟!

ابتسم (ادجرتون) ، وهو يقول :

ـ لقد راجعت ملفك كله يا (ستيف) ، والواقع أن أسلوبك قد راق لى كثيرًا .

ردَّد (ستيف) ، فى دهشة حذرة :

ـ راق لك ؟!

أومأ (ادجرتون) برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى رصانة :

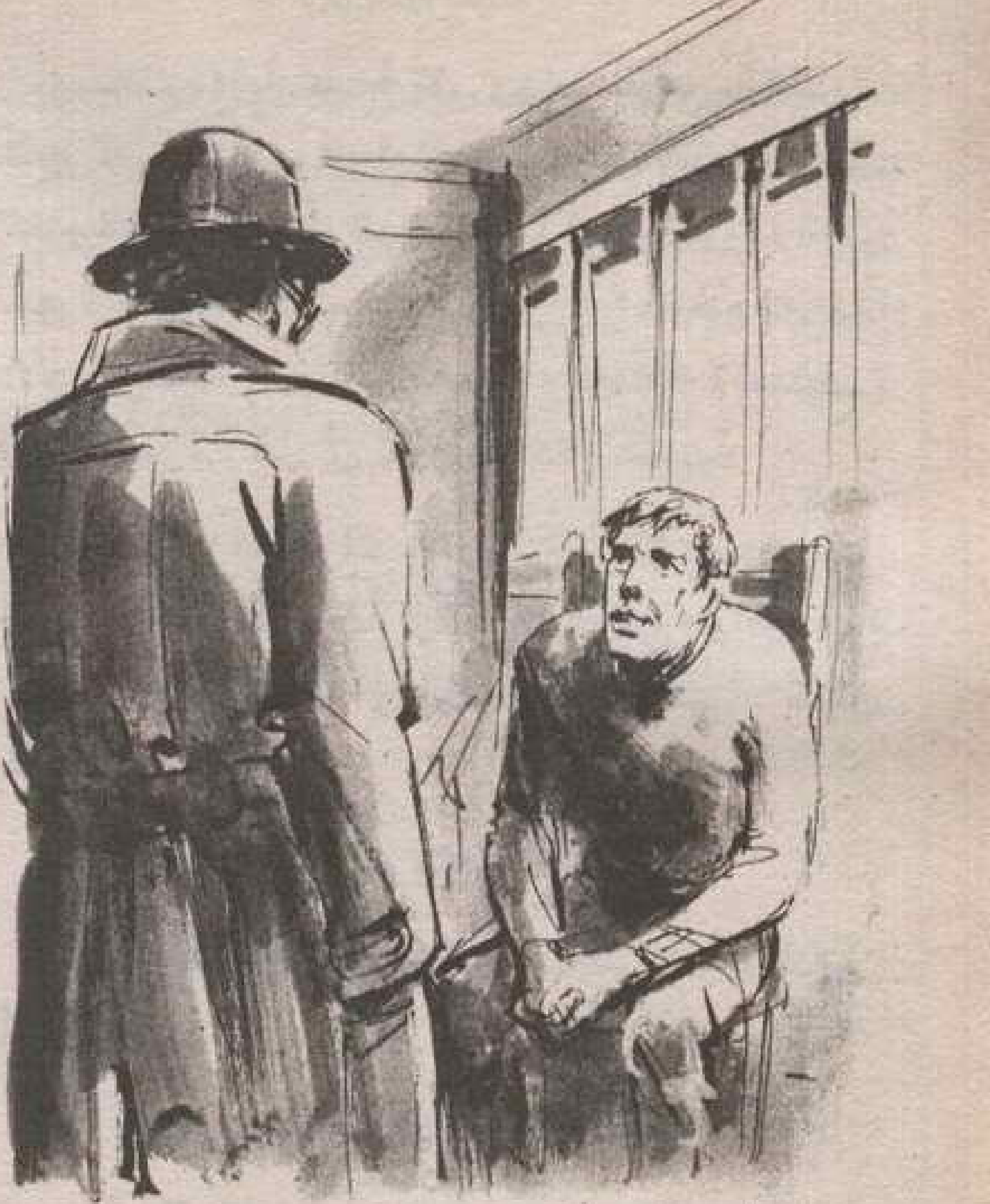

فحدجه (ستيف) بنظرة حذرة ..

ـ بالتأكيد .. صحيح أنك لص خزائن خبير ، ولكن من الواضح أنك تعشق المغامرة ، وتميل إلى القيام بعمليات صعبة ومعقدة ؛ بدليل أنك لم تحاول قط سرقة خزانة عادية ، فى شركة أو مصنع مثلاً ، وإنما تميل دومًا إلى سرقة الخزائن المحكمة ، فى الأماكن المحاطة بسياج أمنى خاص .

هزَّ (ستيف) كتفيه ، وتألَّقت عيناه ، وهو يقول فى حذر :

ـ الخزائن الكبيرة تحوى نقودًا أكثر .

ابتسم (ادجرتون) ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟! أهذا هو السبب الوحيد ؟!

ارتسمت على شفتى (ستيف) ابتسامة جذلة ، وكأنما يستعيد ذكرى ممتعة ، وهزَّ كتفيه ، دون أن يجيب ، فالتقط (ادجرتون) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى هدوء حاسم رصين :

ـ ما رأيك فى القيام بعملية جديدة ؟!

رمقه (ستيف) بنظرة صامتة طويلة ، قبل أن يقول فى سخرية :

ـ هذا يستلزم الانتظار لثلاث سنوات أخرى ، حتى تنتهى مدة العقوبة ، و ....

قبل أن يتم عبارته ، التقط (ادجرتون) عدة أوراق من جيبه ، ووضعها أمام عينى (ستيف) ، الذى حدّق فيها لحظة ، وهو يغمغم فى حذر أكثر :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه (ادجرتون) :

ـ قرار بالإفراج عنك فورًا ، وآخر بالعفو عن كل جرائمك السابقة ، وتنقية صحيفة سوابقك تمامًا .

ثم أعاد الأوراق إلى جيبه ، وابتسم لمرأى الدهشة والشك على وجه (ستيف) ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ باختصار .. إنها فرصة ذهبية ، لمحو تاريخك القديم كله ، والفوز بمستقبل نظيف ، وحياة محترمة ، وربما وظيفة يسيل لها اللعاب أيضًا .

تحولّت دهشة (ستيف) كلها إلى مزيج من القلق والشك ، وهو يتطلّع إلى رجل المخابرات الأمريكى طويلاً ، قبل أن يسأله ، بكل حذر الدنيا :

ـ مقابل ماذا ؟!

شدّ (ادجرتون) قامته ، وتطلّع إلى وجهه مباشرة ، وهو يجيب :

ـ خزانة من طراز ألمانى ، نريد منك أن تتسلّل إلى موقعها ، وتفتحها ، وتحصل على كل محتوياتها ، و ...

صمت لحظة ، وهو يواصل التطلّع إلى وجهه ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وتعود بها سالمة .

سأله (ستيف) ، والحذر يحيط بكل حرف من كلماته :

ـ أعود بها إلى أين ؟! أليست داخل (أمريكا) ؟!

هزّ (ادجرتون) رأسه نفيًا ، قبل أن يقول ، وهو يراقب رد فعل ستيف بمنتهى الدقة والاهتمام :

ـ بل فى (برلين) .

ردَّد (ستيف) ، فى دهشة حذرة :

ـ (برلين) ؟!

أجابه (ادجرتون) بكل الصرامة :

ـ نعم .. (برلين) الشرقية .

وفى هذه المرة ، حدَّق (ستيف) فى وجه (ادجرتون) طويلاً ..

ولكن العَجيب أن ملامحه لم تحمل ذرة واحدة من الانزعاج أو التوتر أو الخوف ، بل على العكس تمامًا ، فقد تألقت عيناه على نحو عجيب ، وأطلّت منهما نظرة جذلة ، أشبه بنظرة طفل ، يستعد لقضاء يوم كامل ، فى أفخم مدينة للملاهى فى العالم ، وتراقصت على شفتيه ابتسامة مغامر ، قبل أن يقول فى حسم .

ـ أنا موافق ..

وكانت البداية .

* * *

٤ ـ المحتال ..

● لم تكن عملية تدريب (ستيف جوست) ، أو السيطرة عليه ، سهلة أبدًا ، فالشاب كان شديد الثقة والاعتداد بنفسه ، وينظر إلى العملية برمتها باعتبارها عملية سرقة لمحتويات خزانة منيعة ، وليس كمهمة لجهاز مخابرات وليد ، يرغب فى تأكيد وجوده ، والفوز بغنيمة ضخمة ، يبدأ بها معركته الكبرى ، فى الحرب الباردة ، التى تستعر نيرانها فى كل لحظة ..

ولأن (ادجرتون) هو صاحب الفكرة ، التى واجهت اعتراضات جمة ، قبل أن يوافق عليها مدير المخابرات الأمريكى الأوّل ، مع عدة تحفظات أبداها الكولونيل (هارولد) ، فقد كان من الطبيعى ، وفقًا لقواعد العمل فى المخابرات ، أن يتولّى هو أمر العملية ، وأمر إعداد (ستيف) لها ..

ومن حسن حظ (ادجرتون) ، أنه يتميَّز بالرصانة والحكمة ، وهدوء الأعصاب ، والقدرة على ضبط النفس ،

ولولا هذا لانفجر فى وجه (ستيف)، وألغى العملية كلها، منذ اليوم الأوَّل ..

فـ (ستيف) يرى أنه مؤهَّل تمامًا للقيام بالعملية، ولا يحتاج إلى أية تدريبات إضافية، فى حين كان من الضرورى أن يتلقَّى عدة دروس وتدريبات، حول طبائع السوفيت، ونظم أمنهم، وكيفية التعامل معهم على أرضهم ..

ولقد استخدم (ادجرتون) أسلوبًا خاصًا، يعتمد على كسب ثقة (ستيف) وصداقته؛ ليشرح له أهمية تلك التدريبات، للتعامل فى مجتمع لم يعايشه من قبل، ولا يعلم شيئًا عن نظمه وأساليبه ..

وكان أفضل حل لهذا، هو عرض بعض وسائل السوفيت عليه، وقسوتهم فى التعامل مع كل من يشكون فى أمره، ووحشيتهم فى عقاب المجرمين والجواسيس، الذين يقعون فى قبضتهم ..

والواقع أن هذا قد أصاب (ستيف) بصدمة حقيقية،

إلا أنه لم يدفعه للتخلِّى عن العملية، بل بدا وكأن المخاطر الجمة قد ضاعفت من جذله، وأشعلت أكثر روح المغامرة فى أعماقه ..

والأهم أنها قد أقنعته بقبول الدراسات والمحاضرات والتدريبات، والمواظبة عليها فى اهتمام وشغف ..

بل ونهم أيضًا ..

ولقد قضى (ستيف) أكثر من ثلاثين ساعة مع (رودلف ميلر)، استمع خلالها إلى قصته عشر مرات، وطالبه بوصف الخزانة الألمانية عشرين مرة على الأقل، حتى يمكنه تحديد نوعها، وطرازها، وكيفية التعامل معها، عندما تحين لحظة المواجهة المنشودة ..

وبعد شهر واحد تقريبًا، من الدراسات والتدريبات المكثفة، قرَّر (ادجرتون) أن (ستيف جوست) قد استوعب الأمر كله، وأصبح مؤهلاً للقيام بالمهمة، والسفر إلى (برلين) الشرقية فورًا ..

وكان هذا يحتاج إلى اجتماع جديد ؛ لإصدار قرار بهذا ..

وفى هذه المرة ، اجتمع مدير المخابرات مع الكولونيل (هارولد) ، و(ادجرتون) فحسب ..

ومرة أخرى ، أبدى (هارولد) تحفظاته ، الخاصة بعدم ثقته بردود أفعال (ستيف) ، إذا ما حصل على الملفات السرية بالفعل ؛ فهو يخشى أن يحاول هذا الأخير الاستيلاء عليها ، أو بيعها لأى خصم ، أو جهة منافسة ، باعتباره مجرَّد لص ، لا يمكن الوثوق به تمامًا ، ولكن (ادجرتون) أصرَّ على أن الشاب لص ، ولكنه ليس خائنًا ..

ولم تستغرق المناقشة حول هذه النقطة طويلاً ، قبل أن يحسمها مدير المخابرات فى صرامة ، قائلاً :

ـ لقد كنا نعرف أنه لص ، قبل أن نبدأ كل هذا ، ولن نتراجع الآن ، بعد كل ما فعلناه .

لم يرق هذا للكولونيل (هارولد) ، إلا أنه أطاع

رئيسه ، وانتقل بالمناقشة إلى نقطة أخرى أكثر أهمية ..

الصفة التى سيدخل بها (ستيف) (برلين) الشرقية ، تحت سمع وبصر سلطات الأمن السوفيتية ، المتحفزة دومًا ، للانقضاض على كل من تحيط به الشبهات ..

كان الاقتراح التقليدى هو أن يسافر كمراسل صحفى لجريدة محترمة ، مثل (واشنطن بوست) ، ولكن (ادجرتون) اعترض بأن السوفيت يراقبون المراسلين الصحفيين دومًا ، باعتبارهم جواسيس من طراز يختلف ، ولكنهم أيضًا يبحثون عن المعلومات ..

ولقد طرح (هارولد) والمدير عدة بدائل ، اعترض عليها (ادجرتون) أيضًا ، بنفس الحسم والحزم والإصرار ..

وعندما نضبت اقتراحاتهما ، هتف الكولونيل (هارولد) فى حنق :

ـ كيف تتصوَّر دخوله إلى عرين الأسد إذن ؟!

التقى حاجبا (ادجرتون)، وبدت عليه علامات التفكير العميق ، وهو يتراجع بمقعده ، وينقل بصره بينهما بضع لحظات ، قبل أن يعتدل فجأة ، مجيبًا فى حزم :

- كسائح عادى .

حدّق الاثنان فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول (هارولد) فى عصبية :

- مستحيل ! جرت العادة ، فى عالم المخابرات ، على أن ..

قاطعه (ادجرتون)، دون أن ينتبه إلى فارق الرتب بينهما ، وهو يقول :

- جرت العادة ؟! هذا بالضبط ماينبغى أن نتجنبه ، فى هذه العملية بالذات .. لقد بدأناها على نحو غير تقليدى ، ولن يضيرنا أن نواصلها على النمط ذاته .

تبادل المدير نظرة صامتة متوترة مع (هارولد) ، قبل أن يقول فى حذر :

- تذكّر أنه ليس رجل مخابرات محترفًا .

أجابه (ادجرتون) فى سرعة :

- ولكنه محتال محترف ، ويجيد التعامل مع الآخرين ، وإقناعهم بسلامة طويته .

تساءل (هارولد) فى صرامة :

- حتى السوفيت ؟!

ابتسم (ادجرتون) فى ثقة ، وهو يجيب :

- حتى السوفيت .

تواصلت المناقشة لساعة أخرى ، قبل أن يصدر القرار أخيرًا ببدء العملية ، التى أطلقت عليها المخابرات الأمريكية اسم (عملية اللص) ..

وتحت إشراف (ادجرتون)، سافر (ستيف جوست) إلى (برلين) الغربية ، وهو يحمل جواز سفر ، باسم رجل الأعمال الأمريكى (جاك ستيوارت) وبطاقة عضوية فى جمعية رجال الأعمال الأمريكيين فى (ألمانيا) الغربية ..

ومنذ وضع قدميه على أرض (ألمانيا) بدأ (ستيف) يتصرَّف كمحترف حقيقى ، وكمحتال من الطراز الأوَّل أيضًا ، فقد زار مقر جمعية رجال الأعمال ، التى يحمل بطاقة هويتها ، وسجَّل اسمه كمستثمر جديد ، ثم حمل سجله ، صباح اليوم التالى ، إلى الغرفة التجارية الألمانية ، وبدأ يتحدَّث عن رغبته فى صناعة إطارات نظارات ، ذات تصميمات خاصة ، وعدسات من أفضل الموجود ..

وكإجراء طبيعى ، قرَّر زيارة مصانع النظارات الشهيرة فى (برلين) ، ثم لم يلبث أن طلب زيارة مصانع (كارل زايس) ، أشهر منتج عالمى للعدسات ، ولكن مسئول الغرفة التجارية الألمانية أخبره ـ بكل الأسف ـ أن تلك المصانع فى (برلين) الشرقية ، وليس الغربية ..

وهنا ، قرَّر السفر إلى (برلين) الشرقية ، لمعاينة عدسات (كارل زايس) ، والتعاقد مع الإدارة الجديدة للمصنع ؛ لإمداده بالعدسات المطلوبة ، لإطاراته المبتكرة الجديدة ..

وعند الحدود ، راجع السوفيت أوراقه فى روتينية ، وطالعوا جواز سفره باهتمام تقليدى ، قبل أن يسمحوا له بدخول (برلين) الشرقية ..

وعبر (ستيف) الحاجز الحديدى ، كما أطلقوا عليه فى تلك الأيام ، وأصبح داخل (برلين) الشرقية بالفعل ، ولم يعد متبقيًا سوى الاتجاه إلى ذلك المبنى الحكومى ، والتسلُّل إلى قبوه ، وفتح الخزانة ، والاستيلاء على وثائق وملفات الشفرة السوفيتية السرية الخاصة ..

وفى (برلين) الغربية ، تلقَّى أزرق العينين تقريرًا يفيد عبور (ستيف) ، فأبرق بالأمر إلى (واشنطن) التى استقبلته بارتياح ، وبترقُّب لبدء العملية الفعلية ..

أما فى (موسكو) ، فقد كان الأمر يختلف تمامًا ..

فقد كان الكولونيل (جياريف) ، نائب رئيس الـ (كى . جى . بى) ، للشئون الغربية ، يراجع بعض التقارير المهمة العاجلة ، الواردة من بعض عملاء

(واشنطن)، عندما دلف أحد ضباطه إلى مكتبه، وهو يقول فى احترام ولهفة، يشفان عن أهمية وخطورة ما جاء من أجله :

ـ الجاسوس، الذى أبلغنا عميلنا فى المخابرات الأمريكية بأمره، عبر إلى (برلين) الشرقية منذ دقائق.

التقى حاجبا الكولونيل (جياريف)، فدفع ضابطه أمامه مجموعة من الأوراق، مع برقية شفرية، وردت من (برلين) الشرقية منذ لحظات، وصورة ..

صورة واضحة، للجاسوس الذى تحدَّث عنه ..

صورة (جوست) ..

(ستيف جوست).

★ ★ ★

٥ ـ فى عرين الأسد ..

● لأن (ستيف جوست) لص محترف، قبل أن يكون عميل مخابرات، فقد طبَّق، منذ اللحظة الأولى، كل قواعد عالم اللصوصية، الخاصة بالاستعداد لعملية سرقة جديدة ..

لقد قضى يومه الأوَّل والثانى فى زيارة مصانع (كارل زايس)، كما سيفعل رجل أعمال تقليدى، ولكنه، وفى كل مرة، كان يعود إلى فندقه عن طريق الشارع، الذى يضم تلك البناية الحكومية؛ ليرصدها ببصره جيِّدًا، دون أن يتوقَّف عندها لحظة واحدة ..

وفى (موسكو)، كان الكولونيل (جياريف)، رجل المخابرات السوفيتية العريق، يتابع كل تحركات (ستيف)، عبر البرقيات التى يرسلها إليه مكتب (برلين) الشرقية، وهو يراجع، فى الوقت ذاته، المعلومات التى أرسلها عنه ذلك العميل السرى،

الذى زرعوه فى قلب المخابرات الأمريكية منذ مولدها ..

ولقد رصد ذلك العميل واقعة فرار جندى الإشارة السابق (رودلف ميلر) ، واهتمام المخابرات الأمريكية بشأنه ، منذ اللحظات الأولى ، ولكنه لم يتوصَّل إلى تداعيات الموقف ، إلا بعد أن بدأ (ستيف جوست) تدريباته بالفعل ..

ومع نوعية التدريبات والمحاضرات ، وعلى الرغم من حرص (ادجرتون) الشديد على السرية ، فقد تمكَّن العميل من إدراك الهدف ، من الاستعانة بـ (ستيف جوست) ..

ثم فجأة ، وقبيل سفر (ستيف) بيوم واحد ، ومن خلال مصادفة بحتة ، تشفَ عن ضعف إجراءات الأمن ، فى المخابرات الأمريكية الوليدة ، علم العميل أن مهمة (ستيف جوست) ، هى الوصول إلى خزانة سرية ، تحوى ذلك الكنز ، الذى يبحث عنه المعسكران المتنازعان ، منذ سقوط واندحار الرايخ الثالث ..

ولم تكد تلك المعلومة تبلغ الجانب السوفيتى ، حتى قامت الدنيا هناك ولم تقعد ..

ونظرًا لخطورة الأمر ، تم إسناد العملية إلى واحد من أقدم وأهم وأخطر رجال المخابرات السوفيتية .. الكولونيل (يوران جياريف) ..

ولقد طالع (جياريف) كل البرقيات ، التى أرسلها عميلهم فى المخابرات الأمريكية ، حول هذا الأمر ..

كان كل ما يعلمونه هو أن المخابرات الأمريكية تعلم أين تلك الخزانة ، وأنهم قد جنَّدوا لصًّا سابقًا ، وخبيرًا فى الخزائن ، للوصول إليها ..

ولكن عميلهم لم يتمكَّن من معرفة موقع تلك الخزانة السرية أبدًا ..

ولقد اقترح بعضهم ، مع وصول صورة (ستيف) ، أن يتمّ إلقاء القبض عليه عند الحدود ، وتعذيبه بكل السبل الممكنة ، حتى يعترف بما لديه ..

ولكن (جياريف) لم يقتنع بهذا الرأى أبدًا ، وخاصة

بعد أن درس ملف (ستيف جوست)، الذى أرسله عميلهم فى المخابرات الأمريكية، فور حصوله عليه ..

فوفقًا لشخصية (ستيف)، والتحليلات النفسية التى حواها ملفه، كان من المستحيل انتزاع أية معلومات منه بالقوة؛ فهو من ذلك الطراز، الذى يُفضّل الموت ألف مرة، على الاستسلام لخصمه ..

لذا فقد كانت لديه خطة أكثر واقعية ..

أن يتمّ السماح للص الأمريكى بدخول (برلين) الشرقية، دون أن يشعر لحظة بما يحاك له، على أن تتمّ مراقبته بدقة، حتى يبلغ هدفه ..

وعندئذ، يتم الانقضاض عليه من كل جانب ..

ولأنه لايميل كثيرًا لمغادرة (موسكو)، فقد أسند هذه المهمة لأفضل تلاميذه، وأكثرهم ذكاءً وخبرة ..

(أليكسى بريلمانوف) ..

وقبل حتى أن يصل (ستيف) إلى (برلين) الشرقية،

كان (أليكسى) يطير بطائرة خاصة إلى هناك؛ ليبدأ الصراع ..

صراع الجواسيس ..

أما (ستيف)، فقد انتظر فى صبر، حتى يوم الأحد التالى، حيث تغرق (برلين) كلها فى إجازة عامة، ثم حمل آلة التصوير الخاصة به، وارتدى زيًّا خفيفًا، كأى سائح بسيط، وخرج للتجوال فى (برلين) الشرقية ..

وكأى سائح عادى أيضًا ، راح يلتقط الصور للميادين ، والنافورات ، والمبانى القديمة أيضًا ..

كل ما صادفه من مبان قديمة ..

ولأنه محترف ، لم يول اهتمامًا أكثر لذلك المبنى الحكومى ، الذى يحوى الخزانة ، بل التقط له نفس العدد من الصور ، ومن نفس الزوايا ..

ولقد أثار هذا اهتمام وانتباه (أليكسى بريلماتوف) بشدة ، وهو يراجع التقارير والصور ، التى التقطها رجال (كى.جى.بى) للأمريكى ، وغمغم فى شىء من العصبية :

ـ هذا الرجل محترف بحق .

ثم راح يحك ذقنه لدقيقة كاملة ، كعادته كلما انهمك فى تفكير عميق ، قبل أن يضيف فى توتر :

ـ لم أكن أتصورّ أن الأمريكيين قد تقدّموا إلى هذا الحد .

صمت مرة أخرى لفترة طويلة ، ولكن أحدًا من

رجاله لم يجرؤ على مقاطعة صمته هذا بحرف واحد ، حتى اعتدل فجأة ، وسأل فى اهتمام شديد :

ـ كم تبلغ مدة تأشيرة الإقامة ، التى حصل عليها ذلك الأمريكى .

أجابه مساعده فى سرعة :

ـ أسبوع واحد .

التقى حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. هذا يعنى أنه لابد أن يضرب ضربته خلال الأيام الأربعة القادمة .

وانطلقت من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، قبل أن يضيف فى صرامة ، وهو يتراجع مرة أخرى فى مقعده :

ـ يمكننا الانتظار إذن ..

وصمت لحظة ، ثم استعاد عصبيته لسبب ما ، وهو يستطرد :

ـ والصبر .

أما (ستيف) ، فقد قضى يومه الرابع في زيارة مصانع (كارل زايس) ، وبدأ يتفاوض بالفعل على شروط التعاقد ، حتى الثالثة عصرًا ، ثم عاد إلى فندقه ، وظلَّ به حتى السادسة ، ثم غادره ليحصل على الصور ، التى طلب من أحد المحال الشهيرة ، في (برلين) الشرقية إظهارها وطباعتها ..

كانت كل تصرفاته تبدو هادئة بسيطة ، على نحو لا يمكن أن يثير الشبهات من حوله ، في أية ظروف عادية ..

وداخل حجرته بالفندق ، فرد (ستيف) كل صور المبنى الحكومى أمامه ، وراح يدرسها بمنتهى العناية ، كما يفعل في كل مرة ، يقوم فيها بواحدة من عمليات السرقة المعقَّدة ، التى اشتهر بها ..

وفى نفس اللحظة ، التى كان يضع فيها لمسات خطته ، كان هناك تطوّر خطير يحدث هناك .. في (واشنطن) ..

فمع خطأ أمنى ، وقع فيه عميل المخابرات السوفيتية ، انكشف أمره ..

ووقع فى قبضة المخابرات الأمريكية ..

وفى عالم المحترفين يكون أوّل ما يحرص عليه جهاز المخابرات ، عندما يوقع بجاسوس بين صفوفه ، هو أن يمنعه من تدمير أوراقه ، ومن إبلاغ جهاز المخابرات المنافس بسقوطه ..

لذا فقد كشف الأمريكيون أمر الجاسوس السوفيتى ، ولكنهم لم يظهروا هذا ، واكتفوا بمراقبته بعض الوقت ، ورصد كل تحركاته وسكناته ، واتصالاته ..

وفى الوقت ذاته ، كان هو يواصل محاولاته ، لتنفيذ ما تلقى الأوامر من (موسكو) بشأنه ، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المهمة ، التى سافر من أجلها (ستيف جوست) إلى (برلين) الشرقية ..

وعندما أدرك الأمريكيون ما يسعى إليه الجاسوس ، أصابهم الذعر ، حتى إن (أدجرتون) قد تخلى عن وقاره ورصانته التقليديين ، وهو يهتف :

ـ رباه ! إذن فقد كشفوا أمر (ستيف) .

أجابه (هارولد) فى عصبية :

ـ بالتأكيد .. ولكن المشكلة أنه ليست لدينا وسيلة واحدة للاتصال به أو تحذيره .

وانعقد حاجباه الكثان ، وهو يضيف :

ـ ولكن لدينا معلومات مؤكَّدة بأنهم لم يحاولوا حتى إلقاء القبض عليه ، حتى هذه اللحظة .

حدّق (ادجرتون) فى وجهه بدهشة تحمل لمحة من الذعر ، قبل أن يلتقى حاجباه بدوره ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ السوفيت يلعبونها بحرفية شديدة .

نطقها ، ثم غرق فى تفكير عميق ، احترم خلاله (هارولد) صمته ، فلم ينبس ببنت شفة ، حتى رفع (ادجرتون) عينيه إليه فجأة ، قائلاً بمنتهى الحزم ، والحسم ، والصرامة ، والإصرار :

ـ سأسافر إلى (برلين) .

واتسعت عينا الكولونيل (هارولد) عن آخرهما .. فقرار (ادجرتون) كان مباغتًا وخطيرًا .. وإلى أقصى حد .

★ ★ ★

٦ ـ غريزة أساسية ..

على الرغم من أن (ستيف جوست) قد درس بالفعل ، كل التفاصيل الدقيقة لتصميمات ذلك المبنى الحكومى المستهدف ، فى أثناء تدريباته فى (أمريكا) ، إلا أنه قضى شطرًا طويلاً من الليل ، فى دراسة الصور التى التقطها للمبنى ، بمنتهى الدقة والاهتمام ..

فبطبيعته كلص سابق ، لم يكن يشعر بالارتياح ، إذا ما درس موقع عمليته ، من خلال تصميمات هندسية على أوراق كبيرة ..

كان يحتاج إلى نوع من التآلف البصرى ، والاعتياد المكانى ..

وفى الظروف العادية ، كان سيذهب بنفسه لزيارة المبنى ، ويجوّل فيه بعض الوقت ، ويقترب من موضع الخزانة المنشودة بقدر الإمكان ، حتى يألفه ، ويعتاده ، ويستطيع التحرُّك داخله بخفة وبساطة ، عندما تحين اللحظة ..

ولكنه ، وفى ظل عمله لحساب جهاز مخابرات ، فى أرض معادية ، كان مضطرًا للاكتفاء بهذه المجموعة من الصور ..

وكان عليه أن يغوص بكيانه داخلها ، كما لو أنه يجوّل فى المكان فعليًا ..

وهذا بالنسبة إليه أمر عسير ..

عسير للغاية ..

لذا ، فهو لم يشعر بالارتياح قط ، بل راوده شعور بالتوتر ، فى الثالثة والربع صباحًا ، مما دفعه إلى الخروج للشرفة ، على الرغم من برودة الجو ..

ولم يكد (ستيف) يفعل ، حتى انطلق فى أعماقه جرس انذار مباغت ، وأضاء فى أعمق أعماق مخه مصباح أحمر صغير ..

غريزة اللص فى أعماقه ، صرخت بكل قوتها ، فى كل خلية من جسده ، عندما وقع بصره على السيارة السوداء الصغيرة ، التى تقف أمام الفندق مباشرة ،

وعلى ذلك الرجل البدين الغليظ داخلها ، والذى كان يتطلع إلى شرفته مباشرة ..

صحيح أن البدين قد أدار عينيه بعيدًا ، فور خروج (ستيف) إلى الشرفة ، إلا أن هذا الأخير كان من الذكاء والحنكة والخبرة ، بحيث رصد الموقف كله فى ثانية واحدة لا غير ..

واستوعبه .. وفهمه ..

كان من السهل أن يدرك عقله الأمر ، مع وجود ذلك البدين ، فى تلك الساعة المتأخرة وتطلعه المباشر إلى شرفته هو بالتحديد ، على الرغم من أن واجهة الفندق تحوى ثلاث عشرة شرفة أخرى ..

ولكن مثله لم يكن يعتمد على عقله وحده ، فى مثل هذه الأمور ..

لقد كان اعتماده الرئيسى دومًا ، على غريزة خاصة ، كامنة فى أعماقه ، وتجيد تحليل الأمور واستيعابها ، بأكثر مما يجيدها عقله ألف مرة ..

غريزة أساسية لم يمل الاستماع إليها طوال حياته ، إلا فى تلك المرة ، التى سقط فيها فى قبضة الشرطة ..

وهذه الغريزة الأساسية أنبأته بأنه مراقب ..

وبأن أمره قد انكشف ..

وعلى الرغم من هذا ، فإن خلية واحدة من جسده لم ترتجف ، أو تنكمش ، خوفًا ، أو ذعرًا ..

لقد ظَل هادئًا ، بسيطًا ، والتقط نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره بالهواء البارد ، دون أن يلقى نظرة ثانية على السيارة السوداء ، أو البدين داخلها ، ثم عاد إلى حجرته ، وأغلق الشرفة فى إحكام ..

وفى بطء ، اتجه إلى فراشه ، ورقد فوقه ، وراح يتطلع إلى السقف ، وعقله يعمل فى سرعة ودقة ؛ لتحليل الموقف ، على ضوء المعطيات الجديدة ..

لقد انكشف أمره ..

ليست لديه ذرة من الشك فى هذا ..

صحيح أنه قد اتبع كل أساليب الحيطة والحذر ، ولكنهم كشفوا أمره بوسيلة ما ، لا يمكنه التوصل إليها الآن .

ولساعة كاملة ، راح يدرس الموقف كله منذ البداية ، ويحاول استيعابه ، وتحليله ، وفهم ما يفعله السوفيت ، على ضوء دراسته لأسلوبهم ، ونظمهم ، وطبيعة أجهزتهم الأمنية ، فى (برلين) الشرقية ..

ورويدًا رويدًا ، وبعبقرية فذّة ، استنتج عقل اللص السابق الأمر كله ..

وعلى نحو مدهش بحق ، كما أشارت التقارير ، التى أفرج عنها ، بعد أكثر من ربع قرن من الزمان ..

فقد استنتج وجود جاسوس سوفيتى ، وسط صفوف الأمريكيين ، أنبأهم بأمره ، ولكنه عجز عن تحديد هدفه ..

لهذا تركه السوفيت يدخل (برلين) الشرقية ، ويعمل داخلها ، دون أن يلقوا القبض عليه أو يحاولوا اعتراضه أو منعه ، من مواصلة مهمته ..

إنهم مثل الأمريكيين ، يتلهفون على الحصول على تلك السجلات النازية ، التى تحوى كل أسرار شفرات اتصالاتهم ، ومستعدون للقتل فى سبيلها ..

لذا ، فقد تركوه يعمل ، واكتفوا بمراقبته ، حتى يظفر بالغنيمة ، فينقضّوا عليه من كل صوب ، ويفوزون بها ..

وبعدها لن ينتظره سوى مصير واحد ..

مصير مظلم رهيب ..

استعاد عقله كل المعلومات والصور ، التى شاهدها للمعتقلات السوفيتية ، ووسائل الاستجواب والتعذيب ، وهو راقد على فراشه ، وعيناه تحدقان بالسقف فى شرود ، وذهنه يعمل على نحو عجيب ، يكاد معه مخه يشتعل ..

ولكن من المؤكّد أن (ستيف جوست) هذا ، كان من طراز خاص للغاية ؛ فقد حسم أمره ، قرب الخامسة صباحًا ، واتخذ قراره ، ثم نام ملء جفنيه حتى التاسعة ، وكأنما لا يشغله أى شىء آخر فى الوجود ..

وفى التاسعة والنصف ، كان يتناول إفطاره فى فندقه ، وهو هادئ الملامح ، باسم الثغر ، وكان

كل ما يدور من حوله مجرَّد فيلم هزلى ، يثير فى أعماقه أكبر قدر ممكن ، من الجذل والاستمتاع ..

وفى هذا الصباح ، وعلى الرغم من ارتباطه بموعد سابق ، لم يذهب (ستيف) إلى مصانع (زايس) ، وإنما اتجه إلى متحف التاريخ ، وقضى فيه ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة ، يفحص كل ركن ، وكل حجرة ، ثم توقَّف لنصف ساعة كاملة عند مدخل القبو ، والتقط له عدة صور ، منها صورة مقرَّبة لرتاج الباب ، أثارت انتباه مراقبه ، الذى أسرع يبلغ الخبر لرجل المخابرات السوفيتية (أليكسى) ..

ولقد استقبل (أليكسى) الخبر فى حيرة شديدة ، جعلته يتراجع فى مقعده ، ويحكَّ ذقنه بكل عصبية الدنيا ، قبل أن يغمغم :

ـ عجبًا ! ماذا أصابه ؟!

سأله مساعده فى حذر :

ـ ما الذى يقلقك أيها الرفيق ؟!

أشار (أليكسى) بيده ، قائلاً :

ـ الرجل كان حريصًا للغاية منذ البداية ، وكان يتصرَّف بحرفية مدهشة ، ثم فجأة ، تجاهل كل هذا ، وبدأ يعمل على نحو سافر ، إلى درجة مستفزة ، فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

بدا التفكير على وجه مساعده بضع لحظات ، قبل أن يتمتم فى حيرة :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه ؟!

تنهَّد (أليكسى) ، قائلاً :

ـ ربما لم يعد هناك داع للانتظار .

ثم اعتدل بحركة حادة ، مستطردًا :

ـ ذلك الرجل ينوى القيام بمهمته الليلة .

هتف مساعده فى انبهار :

ـ الليلة أيها الرفيق ؟!

هبَّ (أليكسى) من مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أبلغ المراقبين أننى أريدهم أن يتابعوا كل حركة يقوم بها ذلك الأمريكى .. كل همسة .. كل خطوة يخطوها .. لا أريده أن يغيب عن بصرهم لحظة واحدة .

قال مساعده فى توتر :

ـ هذا ما يفعلونه طوال الوقت .

صاح به (أليكسى) :

ـ أريدهم أن يفعلوه بدقة أكثر .

أسرع مساعده يبلغ أوامره للمراقبين ، فى حين اتجه (أليكسى) نحو نافذة حجرة مكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتطلّع عبرها فى صمت ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ، وعقله يدير الأمر فى رأسه مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وعلى الرغم من ثقته بما ذهب إليه ، كانت هناك لمحة من الشك ، تعربد فى أعماقه ، و ....

« متحف التاريخ أغلق أبوابه .. » ..

اقتحم صوت مساعده أفكاره ، فقال فى صرامة عصبية :

ـ دعهم يتبعونه أينما ذهب .

أزدرد مساعده لعابه ، قبل أن يقول بكل توتره :

ـ إنه لم يغادره .

واستدار إليه (أليكسى) فى دهشة عارمة ..

فالخبر كان مفاجئًا ..

ومقلقًا ..

للغاية ..

* * *

٧ ـ الأوراق المكشوفة ..

فى صبر عجيب ، ظلّ (ستيف) يجولُ فى متحف التاريخ ، حتى انطلق جرس الإغلاق ، وبدأ الحراس عملية تنظيم خروج الزائرين ..

عندئذ ، تحرّك (ستيف) فى خفة ، ودلف إلى واحدة من دورات المياه ، الموجودة بالمكان ووثب يتعلَّق بالإطار العلوى لبابها ، ثم دفع جسده فى رشاقة مدهشة ، ليلصق ظهره بالسقف ، ويتعلَّق فى هذا الوضع المعقَّد ، حتى فتح أحد الحراس الباب ، وتأكَّد من خلو المكان ، ثم أغلقه من الخارج فى إحكامٍ ..

عندئذ فقط ، وثب (ستيف) إلى الأرض فى خفة ، ودون أن يحدث أدنى صوت ، ثم ألصق أذنه بالباب ، ليتابع عملية إخلاء المكان وإغلاقه ..

وفى الخارج ، كان المراقبون يشتعلون توترًا وحيرة ، وهم يراقبون خروج زوار المتحف ، دون أن يبدو أدنى أثر للأمريكى ، الذى كانوا يراقبونه بالداخل منذ دقائق ..

وانتهى خروج الجميع ، وأغلق الحراس المتحف من الخارج بالفعل ..

وجنَّ جنون المراقبين ..

ولنصف ساعة أو يزيد ، راح المراقبون يدورون حول المبنى ، الذى أغلقت كل مداخله ومخارجه ، دون أن يظهر أثر (ستيف) ..

ثم وصل (أليكسى) بنفسـه ، فى سيارة خاصة ، وراح يستجوب المراقبين لنصف ساعة أخرى ، قبل أن يتأكد من أن الأمريكى ما زال بالداخل ، على نحو لا يتطرَّق إليه الشك ..

وفى توتر ، تطلَّع (أليكسى) إلى مبنى متحف التاريخ ، لخمس دقائق كاملة ، قبل أن يقول بلهجة آمرة صارمة :

ـ حاصروا المبنى .. اطلبوا إمدادات إضافية .. المهم ألا تتركوا ثغرة واحدة ، تكفى لخروج ذبابة من هنا .

سأله مساعده فى توتر :

ـ لمَ لا نقتحم المتحف ، و ....

قاطعه فى صرامة قاسية :

ـ كلاً .. من الخطأ الجسيم أن نفعل هذا .

ثم عاد يتطلَّع إلى مبنى المتحف ، مستطردًا فى حدة :

ـ دعوه يقوم بعمله ، حتى يحصل على ما أتينا من أجله .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ونحن نحاصر المبنى كله ، ولن يجد وسيلة واحدة للخروج منه ، دون أن يقع فى قبضتنا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارتـه ، كان (ستيف) يخلع معطفه الأنيق ، ويلقيه جانبًا ، ليبدو من تحته ذلك الزى الرياضى الأسود ، الذى ارتداه فى الصباح ، ثم استبدل بحذائه الجلدى حذاءً أسود رياضيًا ، كان يخفيه فى جيبى معطفه ، وحمل حول كتفه حبلاً قويًا ، ينتهى بخطاف رباعى ، قبل أن يعدو فى خفة فى درجات سلم المبنى ، حتى بلغ طابقه الثالث والأخير ..

ومن هناك تسلَّل إلى السقيفة العلوية ، التى يحتفظون فيها بالمقتنيات القديمة ، وعبر نافذتها ؛ ليتطلَّع من أعلى إلى رجال المخابرات السوفيتية ، الذين أحاطوا بالمبنى ، فى انتظار خروجه ..

كان هذا يعنى أن ذلك الجزء من خطته الفطرية ناجح للغاية ، على الأقل فى جذب الكل إلى حيث أراد ..

وعلى الرغم من حساسية الموقف ، ودقته ، وخطورته ، كان (ستيف) يتحرك بهدوء ونشاط وحيوية ، كما لو أنه لاعب فى سيرك ، وليس عميلاً لجهاز مخابرات ، معاد للدولة التى يعمل على أرضها ، ويكفى خطأ واحد منه ، ليكون الموت مصيره ، بلا رحمة أو هوادة ..

وبكل الخفة والحذر ، راح يسير على الإفريز الضيق ، المحيط بالسقيفة ، وهو يحمل الحبل ذا الخطاف الرباعى على كتفه ..

كانت المسافة التى تفصله عن ركن المبنى لا تزيد على عشرة أمتار ، ولكنها بدت أشبه بدهر كامل ، وهو يسير بمنتهى الحذر ، فوق ذلك الإفريز ، الذى لا يزيد عرضه على عشرة سنتيمترات ، وتحته يقف جيش متحفز ، من رجال المخابرات السوفيتية ..

وعندما بلغ الركن ، توقف بضع لحظات ، ليلتقط أنفاسه ، ويسيطر على أعصابه ، قبل أن يلقى نظرة أخرى على (أليكسى) ورجاله ، ثم يتمتم ، فى شىء من السخرية :

ـ كل هذا لأننى خرقت ، ولأول مرة ، القاعدة الذهبية ،

التى حرصت عليها طيلة عمرى .. لم يكن ينبغى قط أن أعمل مع شركاء .

هزَّ رأسه ، وهو يلتقط الحبل ، ثم يديره فى الهواء فى خفة ، قبل أن يلقيه نحو قائم معدنى يبرز من أعلى سطح المبنى المجاور ..

ولأنه لص محترف ، اعتاد استخدام هذه الوسيلة مرات ومرات ، خلال عملياته السابقة ، فقد التف الحبل حول القائم المعدنى ، من المحاولة الأولى ، ودار الخطاف الرباعى ، ليحكم وضعه بقوة ..

ولثوان ، توقف (ستيف) ؛ ليتأكد من أن أحدًا لم ينتبه إلى ما حدث ، ثم لم يلبث أن تشبَّث بالحبل ، وألقى جسده فى الهواء ..

وعلى مسافة خمسة وعشرين مترًا تقريبًا ، وفوق رءوس رجال المخابرات السوفيتية ، طار جسده فى الهواء ، متعلقًا بالحبل ، حتى استقبل جدار المبنى المقابل بحذائه المطاطى ، دون أدنى صوت ..

ولنصف دقيقة تقريبًا ، ظلَّ معلقًا بالحبل ، دون أن يصدر عنه أدنى صوت ، وعيناه معلقتان برجل المخابرات (أليكسى) ورجاله ، الذين التفوا حول مبنى متحف التاريخ ، دون أن يرفع أحدهم رأسه إلى أعلى لحظة واحدة ..

ثم ، وبخفة مدهشة ، راح يتسلَّق الحبل ، ليبلغ سطح المبنى ..

كان هذا سر لقب (جوست) الذى يحمله ، والذى يعنى (الشبح) بالإنجليزية ؛ فمنذ نعومة أظفاره ، كان اهتمامه شديدًا بتنمية مهاراته الجسدية ، ولياقته البدنية ، ومرونته التى بلُغت حدًّا مدهشًا ، مع مداومته على المران ، حتى أصبحت تحركاته خفيفة رشيقة ، إلى الحد الذى جعله أشبه بالشبح ، لا يراه أو يشعر بوجوده أحد ، وهو يتسلَّل إلى أى مكان ..

ولقد بلغ سطح المبنى المقابل ، واستقرّ فوقه بضع دقائق ؛ ليطمئن إلى أن كل شىء يسير على ما يرام ،

قبل أن يجذب الحبل ، ويلفّه حول كتفه مرة أخرى ثم ينطلق من سطح إلى آخر ، فى طريقه إلى ذلك المبنى الحكومى ، على بعد مربَّع سكنى واحد ، من متحف التاريخ ..

أما (أليكسى) ، فقد بدأ يشعر بالتوتر ، وهو يقف مع رجاله ، أمام متحف التاريخ ، وراح يزفر على نحو شبه متصل ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ المفترض أنه خبير خزائن ، فلماذا استغرق كل هذا الوقت ؟!

هزَّ مساعده رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. ولكن المراقبين يقولون : إن تصرفاته تتسم أحيانًا بالغرابة ، فأمس مثلاً خرج إلى الشرفة ، فى الثالثة صباحًا ، على الرغم من برودة الطقس ، و ...

استدار إليه (أليكسى) بحركة حادة ، والتقى حاجباه فى شدة ، وهو يمسك كتفه فى قوة ، انغرست معها أصابعه فى كتف مساعده ، وهو يهتف :

- خرج إلى الشرفة ؟! ولماذا لم يبلغنى أحد بهذا .. لماذا ؟!

امتقع وجه مساعده ، وهو يقول :

- لم .. لم أظن أن الأمر بالأهمية التى ..

قاطعه (أليكسى) بصرخة هادرة ، وأصابعه تنغرس فى كتفه أكثر :

- غبى !

ازداد التقاء حاجبيه الغاضبين ، وهو يعيد رسم الصورة فى ذهنه ، وفقًا لتلك المعلومة ، التى بدت لرجاله تافهة ، والتى قلبت المعنى كله فى مخه ، رأسًا على عقب ..

لقد علم الأمريكى أنهم يراقبونه ..

ويا له من جرىء !

لقد قرَّر أن يلعب بأوراق مكشوفة ، وأن يعبث بهم جميعًا ..

وبكل الغضب ، الذى اشتعل فى أعماقه ، وأحرق عروقه وأعصابه ، صرخ (أليكسى) :

- اقتحموا المكان .

لم تمض على صيحته دقائق عشرون ، حتى كان رجاله المذعورون يخبرونه بالنتيجة ، وكل ذرة فى كيانهم ترتجف ..

إنهم لم يجدوا أثرًا للأمريكى ، فى أى مكان بالمتحف ..

وأصرَّ (أليكسى) على البحث بنفسه ..

وبعينه الخبيرة ، شاهد الآثار فى السقيفة ، ونافذتها المفتوحة ، وأثر قدم (ستيف) على الإفريز الضيق ..

وفهم كل شىء ..

وتضاعف غضبه أكثر وأكثر ، وهو يلتفت لرجاله ، ويقول فى صرامة ، لم ينطق بمثلها قط ، فى حياته كلها :

- حاصروا المنطقة كلها ، وأعلنوا حالة الطوارئ القصوى ، فى (برلين) كلها .. ربما نجح ذلك الأمريكى

فى خداعنا ، ولكنه ما زال داخل حدودنا ، ولن نسمح له بالخروج منها حيًّا أبدًا .

ودون إضاعة ثانية واحدة ، انطلق الرجال لتنفيذ الأمر ، وغضب (أليكسى) يتضاعف أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وكان هذا يعنى بداية جولة جديدة ، فى صراع الجواسيس ..

جولة عنيفة ..

وقاتلة ..

* * *

٨ ـ الأصابع الذهبية ..

لم يكد رجل المخابرات الأمريكى (ادجرتون) يصل إلى (برلين) الغربية ، حتى استقبله العميل الأزرق العينين ، وقال فى توتر ، وهو يقود بهما سيارته بنفسه :

ـ السوفيت أعلنوا حالة الطوارئ القصوى فى (برلين) الشرقية ، وكل حدودهم مغلقة .

سأله (ادجرتون) فى قلق عارم :

ـ ألا توجد أية وسيلة ؛ للدخول هناك ؟!

أجابه أزرق العينين على الفور :

ـ الدخول ليس مشكلة .. المهم الخروج .

تراجع (ادجرتون) فى مقعده ، وهو يغمغم :

ـ رباه ! عميلنا بالداخل يواجه خطرًا داهمًا إذن ..

وافقه أزرق العينين بإيماءة من رأسه ، قبل أن يقول :

- حالة الطوارئ القصوى هذه ، تعنى أنهم لم يظفروا به بعد .

قال (ادجرتون) فى سرعة :

- وتعنى أيضًا أنه فى قلب الجحيم الآن .

صمت أزرق العينين بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- لست أظن أنه لدينا وسيلة لإنقاذه .. أو حتى لمعاونته .

مطَّ (ادجرتون) شفتيه ، وهو يقول :

- يجب أن نجد وسيلة ما .. لم أقطع المسافة ، من (واشنطن) إلى هنا ، لأقف موقف المتفرِّج .. لابد أن نجد وسيلة ما .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف ، بكل توتر الدنيا :

- قبل فوات الأوان ..

* * *

لم يدر (ستيف) بما حدث بسببه ، فى (برلين) الشرقية كلها ، وهو يواصل الانتقال عبر الأسطح ، حتى بلغ البناية الحكومية المنشودة ..

وعلى سطحها ، ثبت طرف الحبل ، ذى الخطاف الرباعى ، فى السور الخلفى القصير ، ثم تعلَّق به ، وبدأ ينخفض بوساطته ، على الواجهة الخلفية للمبنى ، حتى بلغ نافذة مغلقة ، فى طابقه الرابع ، فالتقط من جيبه أداة رفيعة ، راح يعالج بها رتاج النافذة بيمناه ، وهو معلَّق بالحبل بيسراه ، حتى استجاب له الرتاج ، وانفتحت النافذة ، فدفع جسده عبرها ، وهبط فى ممر الطابق ، فى مرونة ورشاقة ، ودون أدنى صوت ..

ولثوان عشر ، تجمَّد فى مكانه ؛ ليتأكَّد من عدم وجود حارس داخل المبنى ، ثم لم يلبث أن بدأ تحرُّكه بمنتهى النشاط والخفة .. والسرعة أيضًا ..

وأمام مهارته وخبرته ، المكتسبة من طول المران ، ومن عملياته السابقة الناجحة ، انفتحت كل الأبواب ، وانزاحت كل العقبات ، حتى وجد نفسه داخل القبو ..

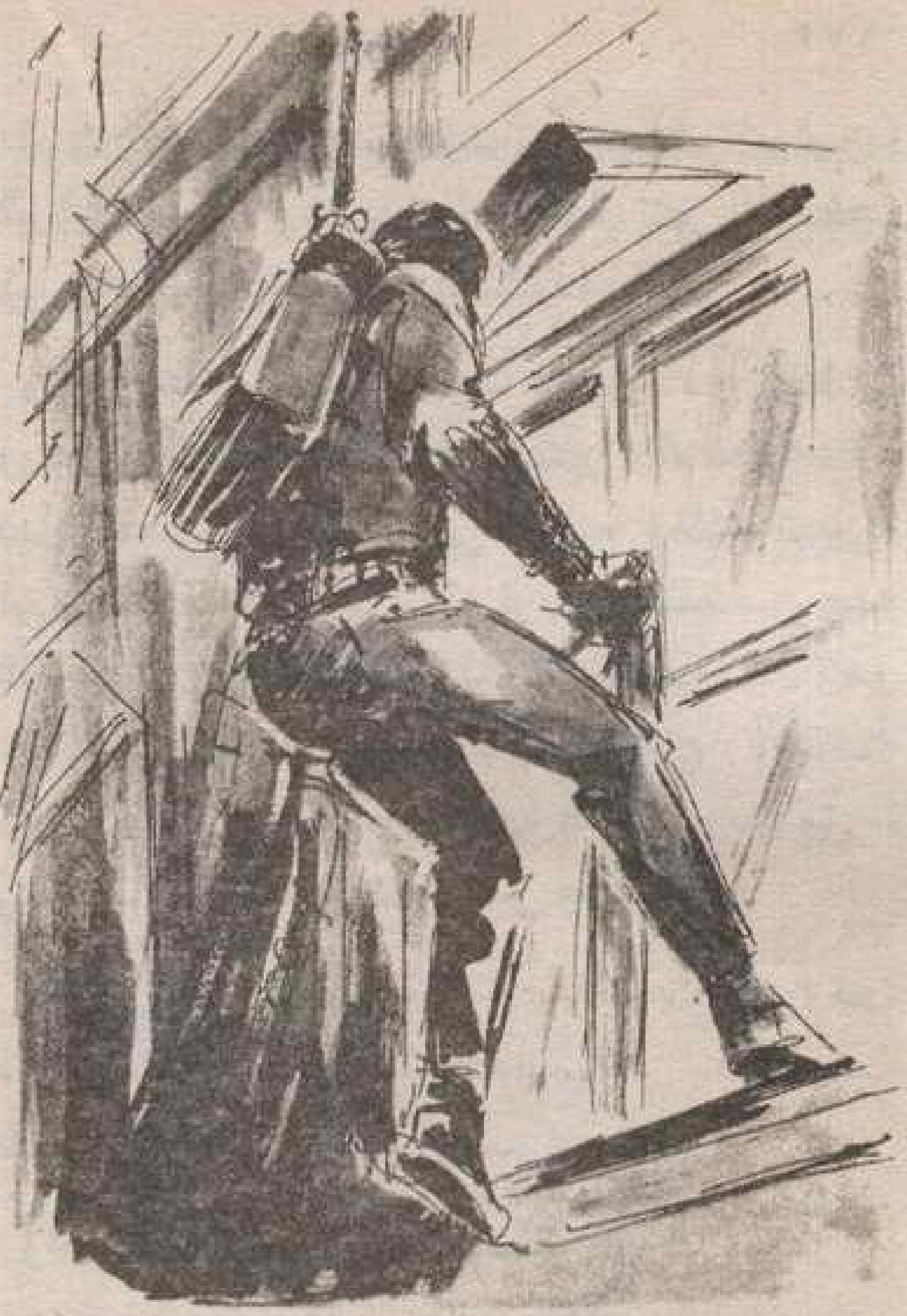

وبدأ ينخفض بوساطته ، على الواجهة الخلفية للمبنى حتى بلغ نافذة مغلقة ..

ومن النظرة الأولى ، أدرك أن هذا القبو لم يتغيَّر كثيرًا ، منذ سقوط وانهيار الرايخ الثالث ؛ فقد كانت هناك طبقة كثيفة من الغبار تكسو كل شىء ، وخيوط العنكبوت تنتشر فى كل مكان ، حتى إنه قد أخرج منديله ، وأحاط به أنفه وفمه ، وهو يشعل مصباحه اليدوى ، ويتحرَّك فى المكان فى خفة وسرعة ، نحو البقعة التى أشار إليها جندى الإشارة السابق (رودلف ميلر) ، فى اعترافاته ..

كان المكان يحوى بعض الملفات القديمة ، التى التهمت الفئران معظمها ، والملقاه بإهمال بشعٍ ، على نحو يوحى بأن أحدهم قد فحصها ، ولم يجد فيها ما يفيد أو ينفع ..

وفى كل الأركان ، كانت هناك قطع من الأثاث القديم ، تآكلت أجزاء منها ، وتهالكت أجزاء أخرى ، فى صورة مثالية للإهمال واللامبالاة ..

ولكن (ستيف) تجاهل كل هذا ، واتجه نحو دولاب قديم ، مثبت بالجدار ، وراح يزيح قطع الأثاث المتهالكة

من أمامـه ، قبل أن يفتـح ضـلفته ، ذات المفصـلات الصدئة ، ثم يتطلّع إلى قاعه الخشبى بنظرة فاحصة ..

وأخرج من جيبه أداة أخرى ، بدأ يعمل بها فى قاع الدولاب الخشبى ، فى همـة وسرعة ونشـاط ، حتى فصله عن الدولاب ، وانتزعه من مكانه ، و ....

وخفق قلبه فى عنف ، وهو يحدّق ، على ضوء مصباحه اليدوى ، فى تلك الخزانة الفولاذية القويـة ، الألمانية الصنع ، ذات الرتـاج الخـاص ، والتى أطلّت عليه ، من خلف القاع المنزوع ، فيما بدا لـه أشبه بتحدّ سافر ، لكل خبراته ومهاراته ..

وكجرّاح خبير ، رفـع أصابعه أمام وجهه ، وتلاعب بها فى الهواء ، وهو يتطلّع إليهـا فـى إعجـاب ، مغمغمًا :

- هيا يا (ستيف) .. إنها أول مرة تعمل فيها بدون قفازات ..

أثبت للكل أنك الأفضل بلا منافس .. هيا ..

فى نفس اللحظة ، التى راحت فيها أصابعه الخبيرة تعالج رتـاج الخزانـة المعقّد ، كـان رجل المخـابرات السوفيتى (أليكسى بريلمانوف) يفـرد أمامـه كـل الصور ، التى التقطها (ستيف) للمبانى القديمـة ، والتى حصلوا على نسخة إضافية منها ، من المتجر الذى قام بإظهارها ، ويدرسها بمنتهى العنايـة ، محـاولاً التوصُّل إلى استنتاج منطقى ، يقوده إلى الهدف ، الذى يسعى إليه الأمريكى ..

وبعقلية لا تقل عبقرية ، عن عقليـة (ستيف) ، راح يستبعد بعض البنايات ، إما لبعدها عن متحف التاريخ ، وإما لأنها ، بحكم طبيعتها السياسية أو العسكرية ، محاطة بنطاق أمنى مكثف ، يجعل الاقتراب منها أشبه بالانتحار ..

وبنظريـة الاستبعاد هذه ، لم يعد أمامـه سوى مبنيين فحسب ..

وهنا ، اعتصر عقله بمنتهى القوة ؛ لتحديد الهدف ..

هدف (ستيف) ..

وكعادته ، تراجع فى مقعده ، وراح يحك ذقنه ، وهو يفكِّر بمنتهى العمق .. ويفكِّر .. ويفكِّر ..

ثم توصَّل عقله السوفيتى إلى حل أكثر سهولة ، وأكثر توفيرًا للوقت ..

وبكل الحزم ، اعتدل فى مقعده ، وأصدر أمرًا حازمًا حاسمًا ، باقتحام المبنيين فى آن واحد ..

وفورًا ..

ولم يكن (ستيف) يدرك هذا بالطبع ، وأصابعه الذهبية تعالج رتاج الخزانة فى سرعة ومهارة .. واستمتاع أيضًا ..

كان قد انفصل تمامًا عن كل ما يحيط به وهو يمارس هذا العمل ، الذى يعشقه حتى النخاع ، والذى من أجله تخصَّص فى سرقة الخزائن الصعبة بالتحديد ..

ربما لم يكن ما يحصل عليه هو مصدر متعته ، وإنما تلك المواجهة بينه وبين كل خزانة صعبة يتعامل معها ، هو مصدر متعته الأوَّل ..

ولقد خفق قلبه فى عنف ، وانتشرت النشوة فى كل خلية فى جسده ، عندما استجاب له الرتاج أخيرًا ، وانفتحت الخزانة النازية أمام عينيه ، معلنةً هزيمتها واندحارها ، أمام أصابعه الذهبية ..

ولثوان ، تملكته نشوة النصر ، فجمد فى مكانه ، وهو يتطلَّع إلى الملفات المستقرة داخلها ، قبل أن يغمغم ، بكل سعادة الدنيا :

ـ فعلتها مرة أخرى يا (ستيف) .. فعلتها مرة أخرى أيها العبقرى الفذ ..

ومن حسن حظ (أليكسى) أنه لم يسمع هذه العبارة ، وهو ينطلق بسيارته ، نحو أحد المبنيين ، اللذين وقع عليهما اختياره ، وكل ذرة فى كيانه تشعر بالغضب والثورة ، وتصرّ على ربح هذه المعركة ، وتدمير ذلك الجاسوس الأمريكى .. أيًا كان الثمن ..

والعجيب أنه ، وبغريزته وحدها ، اتجه نحو المبنى الحكومى المنشود ، مع فريق من رجاله ، فى حين أرسل فريقًا آخر إلى المبنى الثانى ، مع أوامر محدودة صارمة ..

محاصرة المبنى ، واقتحامه ، وإلقاء القبض على كل من داخله ، أيًا كانت هويتهم ، وإطلاق النار فورًا ، ودون إنذار ، على أى مخلوق يحاول الفرار ..

أى مخلوق بلا استثناء ..

ولأنه أيضًا رجل مخابرات محنّك ، فقد كان يدرك

أن فرار الأمريكى ، وهو يحمل كل هذه الكمية من الوثائق أمر عسير .. إن لم يكن مستحيلاً ، وأنه سيعطِّل فراره ، ويُثقل حركته حتمًا ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد تحرك بمنتهى السرعة ، فلم يكد رتل سياراته يبلغ ذلك المبنى الحكومى ، حتى جعل رجاله ينتشرون حوله ، ويحاصرونه ، وهتف بهم ، بكل صرامته وانفعاله :

ـ الأسطح .. لا تهملوا الأسطح .

وبمنتهى العنف ، اقتحم رجاله المبنى ، فى نفس اللحظة التى اقتحم فيها الفريق الآخر المبنى الثانى ..

وخلال دقائق معدودة ، انتشر رجاله فى كل مكان ، واندفع هو داخل المبنى ، صائحًا فى صرامة :

ـ لا أريد لبرغوث أن يخرج من هنا ، حتى ولو أصبح خفيًا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع أحد رجاله يهتف فى عصبية :

ـ القبو أيها الرفيق .. أسرع .

وبكل توتره وعصبيته ولهفته ، اندفع رجل المخابرات السوفيتى إلى قبو ذلك المبنى الحكومى المنشود ، و ....

وكانت بانتظاره مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة ..

* * *

٩ ـ برلين ..

« ترى كم يبلغ عدد الملفات ، التى حلَّل فيها النازيون تلك الشفرة الروسية ؟! » ..

ألقى أزرق العينين السؤال فى حذر ، وهو يقود سيارته ، متجهًا نحو الحدود الفاصلة ، بين (برلين) الشرقية والغربية ، فالتقط (ادجرتون) نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيبه :

ـ ثلاثون أو أربعون ملفًّا تقريبًا .

تراقص سؤال آخر على شفتى أزرق العينين ، قبل أن يندفع من بينهما ، وهو يقول :

وكيف يمكن أن يحملها (ستيف) هذا ، فى ظروف كهذه ؟!

صمت (ادجرتون) لحظة ، بدا خلالها وكأنه يراقب الطريق ، قبل أن يجيب فى اقتضاب :

ـ لن يحملها .

سأله أزرق العينين فى فضول :

ـ ماذا سيفعل بها إذن ؟!

كان سؤاله هذا يتجاوز كل القواعد المسموح بها ، حيث لا يتيح عالم المخابرات المعرفة ، إلا بقدر الحاجة ؛ لذا فقد لاذ (ادجرتون) بالصمت بضع لحظات هذه المرة ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ الملفات تحوى الشفرات السوفيتية ، المستخدمة فى أثناء الحرب ، ومفاتيحها ، والدراسات التى أجريت لتحليلها ، ووضع النظم الخاصه بها ، ثم تقرير النتائج النهائية للدراسات ، وفى حالة الطوارئ ، تكفينا مفاتيح الشفرات ، وتقارير النتائج فحسب ، وهذا سيكفى خبراءنا ، لإعادة بناء كل المراحل الوسيطة ، وتحقيق المطلوب .

حاول أزرق العينين أن يستوعب ما يعنيه هذا ، فتمتم فى حذر :

ـ إذن فهو سيحمل عددًا محدودًا من الأوراق فحسب .

هز (ادجرتون) رأسه فى بطء ، مجيبًا فى حزم صارم ، يشفَّ عن عدم استعداده لمواصلة الحديث فى هذا الأمر :

ـ إنه لن يحمل ورقة واحدة .

وانعقد حاجبا أزرق العينين فى شدة ..

فهو لم يفهم ما يعنيه اللغز هذه المرة ..

لم يفهم أبدًا ..

* * *

كل التقارير الرسمية ، التى لم تنشر إلا بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، فى أوائل التسعينات ، أكدت أنه ، ومنذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، لم تشهد (برلين) الشرقية توترًا ، مثل الذى شهدته فى تلك الليلة ..

فعندما اندفع (أليكسى بريلمتوف) ، إلى قبو ذلك المبنى الحكومى ، استقبلته سحابة من الدخان ، مع صيحة أحد رجاله :

ـ الملفات تحترق .. كلها ..

اتسعت عينا (أليكسى) عن آخرهما ، وهو يعدو بكل قوته ، ليقطع المسافة بين موقعه والقبو ، فى قفزة واحدة ، قبل أن تشتعل كل ذرة فى كيانه بغضب ، كاد يبلغ حد الجنون ، وهو يحدِّق فى وعاء معدنى قديم ، اندلعت منه النيران ، على مسافة متر واحد من الخزانة السرية المفتوحة الخالية ، وهى تلتهم ملفات الشفرة السرية التهامًا ..

وبكل غضبه وثورته ، صرخ (أليكسى) :

ـ أين الأمريكى ؟!

سعل أحد رجاله ، مع الدخان الكثيف ، قبل أن يجيب فى توتر :

ـ لم نعثر له على أثر .. يبدو أنه قد انصرف قبل وصولنا .

صرخ (أليكسى) :

ـ لا .. مستحيل !

ثم اختطف جهاز الاتصال اللاّسلكى ، من أقرب رجاله إليه ، وصاح عبره فى غضب هادر :

ـ أغلقوا كل الطرقات .. أعلنوا حالة حظر تجوال فورية .. ألقوا القبض على كل من تشتبهون فى أمره .

كان يواصل إلقاء أوامره ، فى نفس اللحظة التى هبط فيها (ستيف) ، بوساطة حبله نفسه ، ذى الخطاف الرباعى ، على الواجهة الخلفية للمبنى المجاور ، ثم التصق بالجدار ؛ ليراقب الموقف شديد التوتر ، ورجال المخابرات السوفيتية ، الذين يعدون هنا وهناك ، ويستوقفون كل السيارات والمارة ، فى قسوة وغلظة وخشونة لا مثيل لها ..

كان من الواضح أن الموقف قد اشتعل بشدة ، وأنه قد صار محاصرًا فى موقعه ، ورجال الأمن يحيطون به من كل صوب ، ويتصرفون بعصبية غاضبة ، تجعل وقوعه فى قبضتهم مسألة وقت فحسب ..

ولثوان ، كمن فى مخبئه ، يراقب الموقف فى دقة ، قبل أن يغلق عينيه ، ويغمغم :

- لاتتوتر يا (ستيف) .. انس أنك فى (برلين) الشرقية ، وأن من يحيطون بك من رجال المخابرات السوفيتية ، وتخيَّل نفسك فى مكان آخر .. فى (نيويورك) ، ورجال الشرطة أصابهم الجنون ، بعد أن نفذت واحدة من عملياتك الناجحة .. نعم .. إنهم مجرَّد رجال شرطة ..

أغلق عينيه بقوة أكثر ، محاولاً غرس الصورة الذهنية الجديدة فى أعماقه ، كوسيلة للسيطرة على أعصابه ، واستعادة توازنه النفسى والعقلانى ..

ويبدو أن هذا الأسلوب كان ناجحًا إلى أقصى حد ؛ فقد بدأ الهدوء يسرى فى عروقه ، وينتشر فى كيانه ، وراح التوتر يزول من أعماقه تدريجيًّا ، ويحلّ محله ذلك الجذل العابث ، الذى تنتشى له روحه المغامرة ، فى أية عملية مماثلة ..

والعجيب أن هذا الهدوء قد أيقظ عقله وأنعشه ، وجعله يعيد تقييم الموقف بشكل جديد ومختلف ..

فحالة الطوارئ جعلت السير ، مجرَّد السير فى الطرقات ، أشبه بالانتحار ، حتى بالنسبة لسكان المدينة أنفسهم ..

باستثناء رجال الأمن ..

تألَّقت عيناه ، عندما توقَّف عند هذه الحقيقة ، وراح عقله يعمل بسرعة خرافية ، وجرأة جنونية ، وهو يتطلَّع إلى سيارات الأمن القريبة ، ومصابيحها المتردِّدة ، التى يضفى تألُّقها المتقطِّع رهبة واضحة على الموقف كله ..

ثم أقدم على خطوة عجيبة ..

خطوة جريئة ، متهوِّرة ، مجنونة ، لايمكن أن يتوقَّعها أو يتصوَّرها ، أو حتى يتخيلها مخلوق واحد ..

لقد غادر مكمنه ، واتجه فى هدوء وثبات وثقة ، نحو أقرب سيارة إليه من سيارات الأمن ، وفتحها ، واتخذ مكانه خلف عجلة قيادتها ، وأدار محركها ..

ثم انطلق بها ..

والعجيب أن أحدًا لم يلتفت إليـه ، وهـو يفعـل هـذا ..

بل ولـم يستوقفه مخلـوق واحـد ، وهـو يفعـل ما فعله ، ربما لأن رجـال الأمن ، فى تلك المنطقـة ، وتلك الفترة من الزمن ، كانوا يتصوَّرون أنه ما مـن مخلـوق عـاقل يجـرؤ علـى المرور إلـى جوارهم ، فما بالك بسرقة إحدى سياراتهم ؟!

ولكن (أليكسى) لمح السيارة وهى تنطلق ، فهتف فى غضب :

ـ أين يذهب هذا الغبى ؟!

استدار الكل إلى السيارة المبتعدة ، قبل أن يصرخ أحدهم :

ـ إنها سيارتى !!

وهنا ، استوعب (أليكسى) الموقف كله ، وهتف بكل غضب الدنيا ، وهو يندفع نحو سيارته :

ـ ذلك الأمريكى الـ ..

وقبل أن يكتمل هتـافه ، وفى وقت واحد ، انطلقت أربع سيارات أمن قوية ، خلف السيارة التى فرّ بها (ستيف جوست) ..

وفى شـوارع (برليـن) الشـرقيـة ، تردَّد دوى أبواق سيارات الأمن ، وهى تشق طريقها فى توتر بلا مثيل ..

ولكن السيارة ، التى فرّ بها (ستيف) ، لم يكن لها أدنى أثر ، حتى إن رجل المخابرات السوفيتى هتف فى حنق :

أين ذهب ؟! إنه لم يتبخّر حتمًا !

أجابه مساعده فى توتر :

ـ رجالنا انتشروا فى المدينة كلها ، وحاصروا فندقه ، ولكنهم لم يعثروا له على أدنى أثر .

قال (أليكسى) فى حدة :

ـ إنه لن يعود إلى فندقه أيها الحمقى .

غمغم مساعده ، فى خفوت مضطرب :

ـ مجرّد احتياط ، و ..

قاطعه صوت أحد رجال المخابرات السوفيتية ، وهو ينبعث عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قائلاً فى انفعال :

ـ أيها الرفيق (أليكسى) .. عثرنا على سيارة الأمن .

وانعقد حاجبا (أليكسى بريلمانوف) فى شدة ، فقد كان هذا الخبر يعنى الكثير ..

والكثير جدًا ..

* * *

١٠ ـ الشرق .. والغرب ..

لم ينبس رجال المخابرات السوفيتية ببنت شفة ، وهم يقفون أمام سيارة الأمن ، التى فرَّ بها (ستيف جوست) ، وتركَّزت أبصارهم جميعًا على (أليكسى بريلمانوف) ، الذى احتقن وجهه بشدة ، وانعقد حاجباه حتى كادا يمتزجان ، وأطلَّ من عينيه غضب الدنيا كله ، وهو يتطلَّع إلى السيارة ، ومساعده يتمتم فى توتر ، خشية رد فعل رئيسه :

ـ الرجال عثروا عليها هنا ، فى هذا الشارع الضيق ، على بعد ثلاثة مربعات سكنية من منطقة فراره .. ومن الواضح أنه قد تركها هنا ، حتى لا يتمّ العثور عليها بسهولة .

قاوم (أليكسى) تلك الغصّة فى حلقه ، وهو يغمغم :

ـ أراد أن نقضى أطول وقت ممكن ، فى البحث عنها .

وصمت لحظة ، ثم شرد بصره ، وهو يضيف :

ـ وعنه .

أراد مساعده أن يقول شيئًا آخر ، ولكن (أليكسى) استوقفه بإشارة صارمة ، وهو يفكّر فى عمق ..

كان يقاوم ذلك الغضب الهادر فى أعماقه ، والذى يمنع صفاء عقله ، وقدرته على التفكير الهادئ ، وعلى الرغم من تماسكه الظاهرى ، كانت كل ذرة فى كيانه ترتجف ، من فرط الانفعال والثورة ..

وبكل طاقته وإرادته الفولاذية ، راح يسيطر على أعصابه ، وينقّى عقله ، ويحاول وضع نفسه فى موضع الأمريكى ، وتقمُّص أسلوبه فى التفكير ..

لقد فرّ من حصار محكم ، بأسلوب بالغ الجرأة والذكاء ، ثم أخفى سيارة الأمن ، التى يعلم الكل أنها وسيلته للفرار ، واختفى وسط شوارع (برلين) ..

ولكنه لايستطيع العودة إلى فندقه ، وليس من الحكمة أن يختبئ فى أى مكان ، لأن فرق البحث ستعثر عليه ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وكل دقيقة تمضى تعنى المزيد والمزيد من الخطر ، و ....

« الحدود .. »

هتف (أليكسى) بالكلمة بغتة ، بعد أن استقرّ ذهنه ، واستدار إلى مساعده ، هاتفًا بكل انفعاله :

ـ أذكى ما يفعله الآن هو أن يتجه إلى الحدود ..

ارتبك مساعده ، وهو يردّد :

ـ الحدود ؟! ولكن ..

قاطعه (أليكسى) ، وهو يندفع نحو سيارته ، متابعًا بنفس الانفعال :

ـ لقد أخفى سيارة الأمن هنا ؛ ليضيع أكبر وقت ممكن ، وليربكنا كثيرًا وطويلاً ، حتى يصل إلى الحدود ، بجواز سفره الأمريكى .

قال مساعده ، وهو يعدو خلفه نحو السيارة :

ـ ولكنهم لن يسمحوا له بالعبور .

هتف (أليكسى) ، وهو يحتلّ مقعد القيادة :

ـ ليست لديهم أية أوامر لمنعه من العودة إلى الغرب .

وثب مساعده بصعوبة إلى المقعد المجاور له ، قبل أن ينطلق (أليكسى) بالسيارة ، التى امتزج صرير إطاراتها بصيحته الهادرة :

ـ اتصل بالحدود الغربية لاسلكيًا ، وأبلغهم بياناته ،

واطلب منهم منع عبور أى أجنبى إلى الغرب ، حتى نصل إليهم .. هيا .

فى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها أوامره ، كان (ستيف) ينطلق بسيارة ألمانية قديمة ، سرقها من أمام متجر بقالة صغير ، نحو الحدود الغربية ، التى تفصل بين (برلين) الشرقية والغربية ، وقد انعقد حاجباه انعقادة لا تتناسب مع تلك الابتسامة الجذلة ، المرتسمة على شفتيه ..

كان يعلم أن الأمر لم ينته بعد ، وأن المسافة التى تفصله عن الحدود ، قد أصبحت تعنى الفارق بين الحياة والموت ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان يشعر بنشوة عارمة فى أعماقه ، بعد أن بلغ هدفه ، وحصل على مبتغاه ، ونجح فى خداع رجال المخابرات السوفيتية ، الذين قرأ الكثير والكثير عن براعتهم ، وخبرتهم ، وقسوتهم فى التعامل مع خصومهم ..

ولأوّل مرة ، منذ بدأت هذه العملية ، راوده شعور بأنه رجل مخابرات ، وليس مجرَّد لص خزائن ..

ولأوّل مرة أيضًا ، تنزاح فى أعماقه روح المغامر ، لتحلّ محلّها طبيعة رجل المخابرات ، الذى يواجه خصومه فى معركة عنيفة ، ينتصر فيها الأكثر براعة وذكاءً ..

والتقط نفسًا عميقًا من الهواء البارد ، ملأ به صدره ، وابتسم مع القشعريرة الباردة ، التى سرت فى كيانه ، ووجد نفسه يهتف :

ـ فعلتها يا (ستيف) .. فعلتها مرة أخرى .

وعلى الرغم من دقة الموقف وخطورته ، وغموض مرحلته القادمة وحساسيتها ، راحت أصابعه تنقر عجلة القيادة ، وشفتاه تطلقان صفيرًا منغومًا ، للحن أمريكى قديم ، يعيد إلى عقله ذكرى طفولة عصره ..

حتى لاح منفذ العبور إلى الغرب ..

وهنا ، استعاد عقله كل حساسية الموقف وخطورته ، وهو يوقف سيارته ، على مسافة أمتار قليلة من المنفذ ، وعيناه تراقبان الحواجز ، والاستحكامات ، ووجوه الجنود القاسية الصارمة ، وهم يراجعون أوراق سيارة كبيرة ، تستعد للعودة إلى الغرب .

والتقط (ستيف) نفسًا عميقًا ، وراح يراجع أوراقه ، وجواز سفره ، الذى يحمل تأشيرة الدخول إلى الشرق ، و ....

وفجأة ، وعلى الرغم من انشغاله بأوراقه ، انتبه إلى أمر عجيب ..

قائد السيارة الكبيرة ، التى تقف عند المنفذ ، كان يبدو غاضبًا ثائرًا ، وهو يلوّح بأوراقه ، فى وجوه الجنود ..

وكانوا هم يتعاملون معه بمنتهى الصرامة والقسوة ..

ثم أمره أحدهم بالانزياح إلى جانب الطريق ، وهو يلوّح بمدفعه الآلى فى وجهه ، بمنتهى الحدة والشراسة ..

وأطاعهم سائق السيارة الكبيرة مضطرًا ..

ووقف على جانب الطريق ..

ولكنهم لم يلقوا القبض عليه ..

فقط منعوه من العبور إلى الغرب ..

والتقى حاجبا (ستيف) فى شدة ، وعقله يدرس الموقف كله ..

لو أن أوراق الرجل زائفة ، أو كان يحاول الفرار إلى الغرب ، لانقضّ عليه الجنود كالكلاب المسعورة ، ونهشوا لحمه نهشًا ..

ولو أن الظروف طبيعية ، لسمحوا له بالمرور ..

هناك سبب آخر إذن ، منعهم من السماح له بالعبور إلى الغرب ..

وفى هذه الظروف ، لم يجد عقله سوى سبب واحد لهذا ..

هو ..

السوفيت عثروا على سيارة الأمن ، وفهموا سبب إخفائه لها ، واستنتجوا أنه لن يضيع لحظة واحدة ، وسيسعى لعبور الحدود فورًا ..

ولقد أصدروا أوامرهم بمنعه من العبور إلى الغرب ..

وبأى ثمن ..

بل بمنع أية سيارة من عبور الحدود ..

التقى حاجباه فى شدة ، عندما شاهد الجنود يلتفتون إلى سيارته ، ثم يتجهون نحوه ، ومدافعهم الآلية مشهورة فى تحفز ..

وهنا ، بدأ التوتر يسرى فى أعماقه ، وانطلق عقله يدرس الموقف كله ، ويحسب الخطوات المحتملة ، والجنود يقتربون أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ومع اقترابهم ، تضاعف توتره ، وسرت فى عروقه موجة من التحفز ، وهو يشعر بالحنق ؛ لأنه لم يحمل سلاحًا فى حياته قط ، و ..

وفجأة لاحت تلك الأضواء من بعيد ..

أضواء سيارة تقترب فى سرعة ، عبر الطريق المؤدى إلى منفذ العبور إلى الغرب ..

وتوقَّف الجنود ، وتطلَّعوا إلى السيارة القادمة ، وقد بدا عليهم توتر ملحوظ ، وارتفعت فوهات مدافعهم فى تحفز أكثر ..

أما (ستيف) ، فلم يكن بحاجة إلى الكثير من الذكاء ؛ ليدرك ما الذى يعنيه اقتراب سيارة بهذه السرعة ، فى ظروف كهذه ..

صحيح أن الضوء المنبعث من مصباحى السيارة ، كان يحجب وجوه ركابها ، ولكن عميل المخابرات الأمريكى ، ولص الخزائن السابق ، كان يراهم بعقله ..

وكان عليه أن يقيِّم الموقف كله ، ويستوعبه ، ويتخذ

القرار المناسب بشأنه ، قبل أن تصل هذه السيارة ، التى تحمل حتمًا رجال المخابرات السوفيتية ..

فالقرار الذى سيتخذه ، لن يعنى الفارق بين الشرق والغرب فحسب ، بل سيعنى ، فى هذا الموقف ، الفارق بين الحياة والموت ..

وكان على (ستيف جوست) أن يتخذ أصعب وأدق قرار فى حياته ..

فورًا ..

★ ★ ★

١١ ـ القرار الأخير ..

● فجأة ، قفز حل اللغز إلى ذهن العميل الأمريكى الأزرق العينين ، فهتف فى حماسة عارمة ، وهو يلوّح بيده :

ـ التصوير !

التفت إليه (ادجرتون) فى صمت متوتر ، فتابع فى حماسة :

ـ سيقوم بتصوير ملفات الشفرة كلها ، بدلاً من أن يحملها ، بكل حجمها وثقلها .

وعلى الرغم من توتره ، ابتسم (ادجرتون) ، وغمغم :

ـ سيكون لك مستقبل مبهر ، فى عالم المخابرات يا رجل .

غمغم أزرق العينين فى انبهار :

ـ حقًا ؟!

أومأ (ادجرتون) برأسه ، وقال :

ـ نعم يا رجل .. لقد منحنا (ستيف) آلة تصوير خاصة ، وعشر بكرات من الميكروفيلم ، ذات حساسية عالية للغاية ، بحيث يمكنه التقاط صور الوثائق كلها بسرعة كبيرة ، على ضوء مصباح يدوى ، ودربناه على فعل هذا فى زمن قياسى .

قال أزرق العينين فى حماسة :

ـ وبعدها يمكن أن يترك الملفات خلفه .

أشار (ادجرتون) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ خطأ .. صحيح أن الملفات تحوى شفرات الاتصال ، التى يعرفها السوفيت جيّدًا ، إلا أنهم لا يدركون مدى ما توصَّل إليه النازيون بشأنها ، وتركها خلفه يعنى وقوعها فى قبضتهم ، ومعرفتهم لحدود الاستفادة منها ، وهذا خطأ فادح .

قال أزرق العينين فى سرعة :

ـ ينبغى أن يحرقها بعد تصويرها إذن .

أومأ (ادجرتون) برأسه ، قائلاً :

ـ بالضبط .. وهذا ما يفترض أنه قد فعله الآن .

ثم شرد بصره ، وهو يضيف ، بكل توتر الدنيا :

ـ السؤال الآن هو : ما الذى سيمكنه فعله ، فى المرحلة القادمة ، و ..

صمت بضع لحظات ، ازدرد خلالها لعابه فى صعوبة ، عبر حلقه الجاف ، قبل أن يكمل فى عصبية :

ـ والأخيرة ..

لم يدر وهو ينطقها ، لم كانت عبارة صحيحة تمامًا ؛ ففى نفس اللحظة ، التى نطقها فيها ، كانت الجولة الأخيرة للصراع قد بدأت بالفعل ..

الجولة الحاسمة .. والقاتلة ..

* * *

لم يكن من الممكن أن يضيع لصٌّ محترف مثل (ستيف جوست) لحظة واحدة ، فى ظروف شديدة الدقة كهذه ..

كان يعلم أن اقتحام الحدود ، ومحاولة عبورها بالقوة ، أمر أشبه بالانتحار ، إلا أن انتظار وصول سيارة المخابرات السوفيتية ، كان يبدو له أبشع من الموت نفسه ..

لذا فقد كان قراره سريعًا ، حازمًا .. وحاسمًا ..

وبكل قوته ، ضغط دوّاسة الوقود ، وهو يدير المحرك ، ويثب بالسيارة إلى الأمام ، فى وجوه الجنود ، المتجهين إليه ..

وارتطمت السيارة بأحد الجنود ، وأطاحت به جانبًا فى عنف ، ولطم جانبها جنديًا آخر ، ليزيحه عن الطريق بزاوية حادة ، ثم انقضّت على الحواجز الخشبية مباشرة ..

وبحركة آلية غريزية ، ارتفعت فوهات مدافع الجنود الآخرين الآلية ، وانهالت منها الرصاصات كالمطر ، على جسم السيارة ، وزجاجها ، وإطاراتها ..

وخفض (ستيف) رأسه وجسده كله ، وهو يمسك عجلة القيادة بكل قوته ، وتهشّم زجاج السيارة كله

بعنف ، وتناثر داخلها فى كل الاتجاهات ، ودوى صوت الرصاصات ، وهى تخترق جسمها ، وتعبر فوق رأسه بأزيز مخيف ، وشعر بعمود من النار يخترق ظهره ، وآخر يمزّق لحم ساقه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد واصل الضغط على دوّاسة الوقود لترتطم السيارة بالحواجز الخشبية وتحطمها مع مقدمتها ، ثم تندفع متجاوزة إياها ، إلى ذلك الممر المحايد من الطريق ، والذى يفصل بين الألمانيتين ..

ولكن رصاصات الجنود مزّقتا إطاراتها ، التى انفجرت فى عنف ، وراح الجزء المعدنى لها يرتطم بالأرض ، لترتجّ السيارة ، وتتقافز فى عنف ..

ثم فجأة ، اختلّ توازنها ، ووثبت وثبة أخيرة ، قبل أن تنقلب على جانبها ، وتزحف لمترين أو ثلاثة ، فى اتجاه الغرب ، وهى تدور حول نفسها ، لتسدّ الطريق تقريبًا ..

وفى اللحظة نفسها، وصلت سيارة رجل المخابرات السوفيتى (أليكسى) إلى نقطة الحدود، وتوقَّفت لحظة؛ ليقفز منها مساعده، الذى لوَّح بأوراقه، صائحًا فى صرامة:

- (كى . جى . بى) .. مهمة رسمية .. أوقفوا إطلاق النار.

لم يسمع (أليكسى) حتى عبارة مساعده، وهو يواصل الانطلاق، متجاوزا منفذ الحدود، ومنطلقًا عبر الممر المحايد، حتى استوقفته سيارة (ستيف) المقلوبة، فوثب من سيارته، وانتزع مسدسه فى غضب هادر، قائلاً:

- لن ينتصر هذا الأمريكى اللعين .. أبدًا ..

كان (ستيف) يستجمع كل قوته، فى تلك اللحظة، ويستنفر كل ما تبقى من إرادته، ليدفع جسده عبر زجاج السيارة المقلوبة، ثم يجذب ساقه المصابة،

وكاحله الآخر الملتوى، ويتجاهل الدماء التى تغمر وجهه، من جرح كبير فى جبهته، فى محاولة للزحف نحو الغرب ..

ولكن (أليكسى) دار حول السيارة المقلوبة، فى هذه اللحظة، وصوَّب مسدسه المتحفِّز نحو (ستيف)، صائحًا فى صرامة ثائرة:

- خسرت أيها الأمريكى .. لعبتك انتهت بالفشل .. لن تحمل أدق أسرارنا إلى الغرب.

توقَّف (ستيف)، والتقط نفسًا عميقًا، ثم استدار إليه فى بطء، وتطلَّع لحظة إلى فوهة المسدس المصوَّبة إليه، وهو يقول:

- أنت تقف فى ممر محايد أيها السوفيتى.

جذب (أليكسى) إبرة مسدسه، قائلاً فى صرامة:

- أعلم هذا أيها الأمريكى.

استدار إليه فى بطء ، وتطلع لحظة إلى فوهة المسدس المصوَّبة إليه ..

تابع (ستيف) ، وكأنه حتى لم يسمعه :

ـ وفقًا للقانون ، لاسلطة لك أو لرجالك هنا .. لا يمكنك حتى التواجد ، أو إلقاء القبض علىَّ .

ابتسم (أليكسى) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ حقًّا ؟! جميل منك أن نبهتنى أيها الأمريكى .

ثم رفع فوهة مسدسه ؛ ليصوِّبها إلى رأس (ستيف) مباشرة ، وهو يضيف فى غضب هادر :

ـ أعدك إذن أن أكتب على قبرك ، أنك قد لقيت مصرعك بأسلوب غير قانونى .

وانعقد حاجباه فى شراسة ، وهو يضيف :

ـ وداعًا أيها الأمريكى .

ودوت رصاصة فى المكان ..

ومع دويها ، أغلق (ستيف) عينيه فى قوة ، وانتفض جسده كله فى عنف ، وتصورَّ أنها لحظته الأخيرة ، و ...

ولكنه لم يشعر بالألم .. بأى ألم ..

وعندما فتح عينيه ، وجد نفسه يحدِّق فى وجه (أليكسى) ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما وسالت الدماء من ثقب فى جبهته ، وجسده يترنَّح فى قوة ، قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة ..

ومن خلفه ، سمع (ستيف) صوتًا يهتف فى توتر :

ـ أسرع يا رجل .. أسرع باللّه عليك .

كان الجنود السوفيت يطلقون النار من مدافعهم الآلية ، عند الجانب الشرقى ، وأزرق العينين

يعاون (ستيف) على النهوض ، وهو يحمل فى يده مسدسًا ، تتصاعد من فوهته خيوط الدخان ، وسيارة (أليكسى) ، مع السيارة المقلوبة ، يحجبان رصاصات السوفيت ، (ادجرتون) عند الجانب الغربى ، يصيح :

ـ أسرعا .. أسرعا .

وعندما بلغ الرجلان الجانب الغربى ، توقَّفت رصاصات السوفيت ، اعترافًا منهم بالهزيمة ، فى حين هتف (ادجرتون) فى لهفة :

ـ يا إلهى .. إنك مصاب .. نريد سيارة إسعاف بسرعة .

أسرع أزرق العينين للاتصال بمركز الإسعاف ، فى حين أخرج (ستيف) من جيبه صور الأفلام ، التى التقطها للملفات السرية ، وناولها لرجل المخابرات وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ لقد فعلتها .

وابتسم (ادجرتون) ابتسامة كبيرة ، وهو يربِّت على كتفه ، ويلتقط أنفاسه فى عمق ؛ فنجاح هذه العملية هو شهادة ميلاد للمخابرات الأمريكية ، التى ربحت أوَّل صراع فى الحرب الباردة الجديدة ..

صراع الجواسيس ..

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

د. نبيل فاروق

صراع الجواسيس

ومـوضـوعـات أخـرى

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات

صفحة

جاسوس القلم (قصة واقعية) ٥

مذكرات رجل مخابرات :

١- البداية ٢٧

روميو وچوليت (من وقائع الجاسوسية) ٤٣

حرب المعرفة :

١ - الصراع النووى (ج١) ٧٣

ماذا تقترح ؟! ٩٥

من ملفات الجاسوسية العالمية :

(صراع الجواسيس) ٩٧

سين ... و جيم ٢١٧

الثمن فى مصر ٢٥٠ قرشًا

ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ... - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٤١٣٢٠٠٣

مطابع